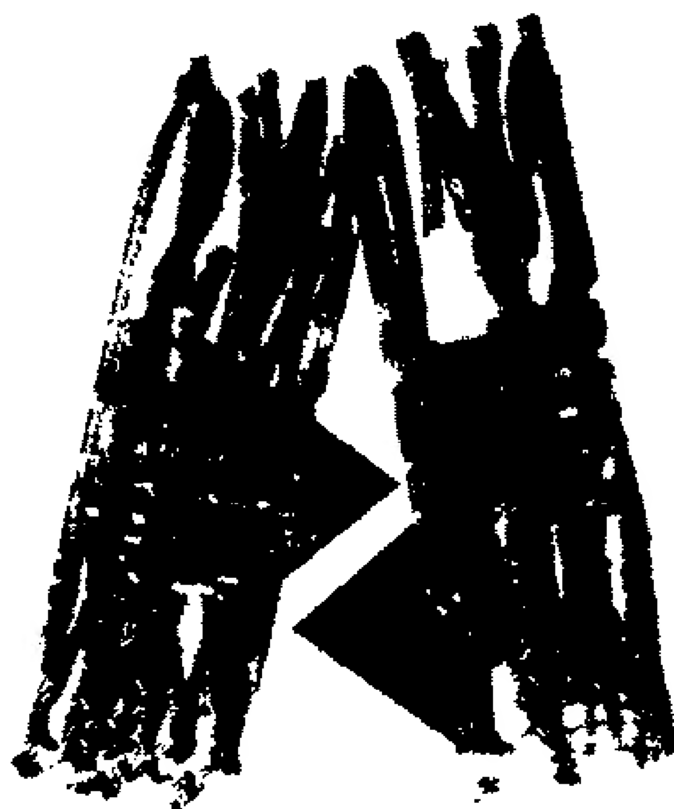
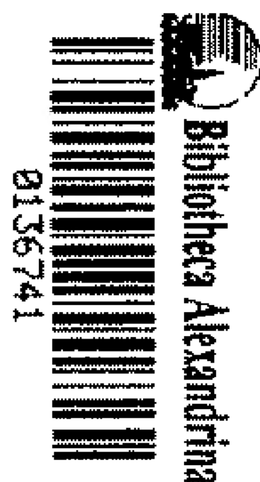
الأوائل

200

ميلان كونديرا

المحاورة





د

ن عاقل

ز عاقل

ميلان كونديرا

المحاورة

ترجمة

معن عاقل - منار عاقل

الكتاب: المحاورة
المؤلف: ميلان كونديرا
المترجم: معن عاقل، منار عاقل
تنضيد: باسمة عبد القادر
إخراج: أمل عصفور
تصميم الغلاف: جمال سعيد
موافقة وزارة الإعلام رقم 2000/48078م

الطبعة الأولى 2000م

الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية
سورية — دمشق — ص.ب: 3397 (أو) 10181

الفهرس

مقدمة

بعد عام 1948، خلال أعوام الثورة الشيوعية في مسقط رأسي، أدركت الدور البارز الذي يلعبه العمى الغنائي في زمن الرعب الذي كان بالنسبة لي المرحلة التي "يسيطر فيها الشاعر مع الجلاد" (**الحياة هي في مكان آخر**). فكرت آنئذ في مایاكوفسكي؛ كانت عبقريته ضرورية للثورة الروسية مثل شرطة دزرجنيسكي. الغنائية والخطاب الغنائي والحماسة الغنائية شكّلوا جزءاً متمماً لما سمّي العالم التوليتاري؛ هذا العالم، ليس عالم الكولاك، إنما عالم الكولاك الذي جدرانه الخارجية موشاة بآيات الشعر ويرقص الناس أمامها.

وأكثر من الرعب، شكّلت غنائية الرعب بالنسبة لي صدمة وإلى الأبد منحتني مناعة ضد كل الإغراءات الغنائية. الأمر الوحيد الذي رغبت به آنذاك بعمق ولهفة، هو نظرة صافية ومتحررة من الوهم. ووجدتها أخيراً في فن الرواية. لهذا السبب، أن يكون المرء روائياً، شكّل بالنسبة لي، وأكثر من ممارسة أي" جنس أدبي" آخر موقفاً وحكمة وموقعاً اجتماعياً؛ موقعاً يستبعد كل تماثل مع السياسة والدين والإيديولوجيا والأخلاق والجماعة؛ لا تماثل واعٍ، عنيد، حانق، ولا يُعَدُّ هروباً أو سلبية، إنما يُعَدُّ مقاومة وتحدياً وتمرداً، وانتهى بي الأمر إلى هذه المحاورات الغريبة: "هل أنت شيوعي يا سيد كونديرا؟ - لا، أنا روائي." "هل أنت منشق؟ - لا، أنا روائي". "هل أنت يساري أم يميني؟ - لا هذا ولا ذاك. أنا روائي".

منذ مطلع شبابي، عشقت الفن الحديث برسمه وموسيقاه وشعره، لكن الفن الحديث كان موسوماً بـ"روحه الغنائية"، بأوهامه عن التقدم، بإيديولوجيته عن الثورة المزدوجة، الجمالية والسياسية، وقد كرهتُ كل هذا شيئاً فشيئاً. ومع ذلك لم تتمكن ريبتي في الروح الطليعية أن تبدل شيئاً من حبي لأعمال الفن الحديث: كنت أحبها، وأحببتها أكثر لأنها كانت أولى ضحايا الاضطهاد الستاليني؛ لقد أرسل سينيك في رواية "المزحة" إلى فوج تأديبي لأنه كان يحب الرسم التكعيبي؛ هكذا كانت الحال آنذاك: اعتبرت الثورة أن الفن الحديث هو عدوها الإيديولوجي رقم واحد حتى لو لم يهدف الحداثيون المساكين إلا إلى الغناء لها وتمجيدها؛ لن أنسى أبداً كوستانتين بيبل: شاعر رائع (آه، كم حفظت من أبيات شعره عن ظهر قلب!) أخذ يكتب، وهو شيوعي متحمس، بعد عام 1948 شعراً دعائياً ذا مستوى متواضع بقدر ما هو محزن؛ بعد ذلك بفترة قصيرة، ألقى نفسه من نافذة على رصيف في براغ وقتلَ نفسه؛ في شخصيته البارعة، شاهدتُ الفن الحديث خائباً ومخلوعاً ومستشهداً ومقتولاً ومنتحراً.

كان وفائي للفن الحديث إذاً عاطفياً مثل تعلقي بلا غنائية الرواية. القيم الشعرية العزيزة على بروتون والعزيزة على كل الفن الحديث (الحدة، الكثافة، المخيلة المتحررة، الاحتقار "اللحظات التافهة من الحياة")، بحثت عنها حصراً على الأرض الروائية — المتحررة من الوهم. لكنها أصبحت تهمني أكثر. وهذا ما يفسر، ربما، لماذا كنت حساساً بشكل خاص لذلك النوع من السأم الذي كان يغيظ دوبوسي لدى سماعه سيمفونيات برامز أو تشايكوفسكي؛ حساساً من دبيب العناكب المجدة. هذا ما قد يفسر سبب بقائي زمناً طويلاً متجاهلاً فن بلزاك ولماذا كان الروائي الذي تولهت به بشكل خاص هو رابليه.

ميلان كونديرا

من الوصايا المغدورة

الدكتور هافل بعد عشرين عاماً

1

حين ذهب الدكتور هافل كي يتعالج، اغرورقت عينا زوجته الجميلة بالدموع. إنها دموع الحنان على الأرجح (لأن هافل بدأ يتألم من مرض المرارة منذ بعض الوقت و لم يسبق لزوجته أن شاهدته يتألم قط) لكن الصحيح أيضاً أن احتمال فراقه لمدة ثلاثة أسابيع أيقظ فيها عذابات الغيرة.

ما قولكم؟ هل كانت هذه الممثلة الجميلة والفتية، والتي هي محطّ الإعجاب، تغار على سيد كهل لم يخرج من منزله منذ بضعة شهور دون أن يحمل في جيبه علبة الأقراص لكي يتقي الآلام الغادرة؟

هذا هو واقع الحال، و لم يكن أحد يفهمها ولا حتى الدكتور هافل الذي ظنها هو أيضاً، بحسب مظهرها، منيعة ومستبدة؛ وعندما بدأ يعرفها معرفة أفضل، ولما اكتشف بساطتها وطبيعتها البيتية وخفرها، ازداد افتتاناً بها؛ والغريب أنهما حتى عندما تزوجا، لم تأخذ الممثلة للحظة بعين الاعتبار المزية التي يهبها لها شبابها؛ فقد فُتِنَتْ بحب زوجها وبشهرته الماجنة والمخيفة حتى أنه ظل يبدو لها هارباً وعصياً على

الإمساك، ومع أنه بمرور الأيام، لم يدّخر جهداً ليقنعها بفارغ الصبر (وبمنتهى الإخلاص) بأنه ليس لها ولا يمكن أن يكون لها مثيل، إلا أنها ظلت تغار بشدة وألم؛ وكان نبلها وحده يفلح في الاحتفاظ تحت غطائه بهذا الإحساس السيئ الذي لم ينفك يغلي فيها بعنف.

كان هافل يعرف كل ذلك، يتأثر منه تارةً وينزعج تارةً أخرى، وها هو الآن متعب قليلاً إلا أنه يبذل ما بوسعه لتهدئة عذابات زوجته لأنه يحبها. حاول هذه المرة أيضاً مساعدتها فراح يبالغ في آلامه وخطورة حالته لأنه يعرف أن الخوف الذي يعتري زوجته لدى التفكير في مرضه هو بالنسبة لها خوف مقوٍ ومطمئن، بينما تنخرها المخاوف التي تنتابها من عافيته (المليئة بالخيانات والحيل)؛ لذلك غالباً ما بدأ كلامه بالحديث عن الدكتورة فرانتيسكا التي ستهتم به أثناء علاجه؛ لأن الممثلة تعرفها حق المعرفة وتطمئن لصورة مظهرها السمح تماماً والبعيد حتماً عن أي صورة خليعة.

عندما شاهد الدكتور هافل، بعد أن أصبح في الحافلة، العينين الدامعتين للمرأة الجميلة الواقفة على الرصيف، اعتراه شعور بالراحة، إن صح القول، لأن حب زوجته ممتع بالطبع لكنه مرهق. ومع ذلك، لم تكن حاله على ما يرام في محطة الحمة المعدنية. فبعد أن يتجرع الماء الذي عليه أن يروي به جسده ثلاث مرات في اليوم، كانت تنتابه الآلام ويشعر بنفسه متعباً، وحين يصادف نساء جميلات تحت القناطر، يتبين برعب إحساسه بشيخوخته وعدم اشتهائه لهن.

المرأة الوحيدة التي أتيح له أن يراها حتى الضجر هي فرنتيسكا، الطبيبة التي تحقنه بالإبر، وتقيس له ضغطه، وتجس له بطنه،

وتخبره باستمرار عما يجري في المحطة المعدنية وعن طفليهـا، ولا سيما عن ابنها الذي يشبهها على ما يبدو.

كان في هذه الحالة النفسية حين تلقى رسالة من زوجته، آه يا للمصيبة! لم يفلح نبل زوجته هذه المرة في الاحتفـاظ بالغطـاء مغلقاً على المكمن الذي يغلي بغيرتها؛ فهي رسالة مليئة بالنواح والشكوى: لا تريد أن تلومه على شيء، كما تقول، إلا أنها لا تنام الليل؛ فهي تعرف حق المعرفة، كما تقول، أن حبها يضايقه، وتتخيل بسهولة مقدار سعادته لأنه وجد سبيلاً للراحة بعيداً عنها؛ أجل، تدرك تماماً أنها تزعجه، تعرف أيضاً أنها أضعف من أن تغيّر حياته التي ما تزال مواكب النساء تعبرها؛ أجل، تعرف ذلك ولا تحتج، لكنها تبكي ولا تستطيع النوم...

حين أنهى هافل هـذه القائمة الطويلة من النواحات، تذكر السنوات الثلاث العابثة التي أرغم نفسه خلالها، بصبر، على أن يبدو لزوجته كماجن تائب وزوج محب؛ فشعر بضجر ويأس بالغين. دَعَكَ الرسالة بغضب وألقاها في سلة المهملات.

2

وشعر بالتحسن في اليوم التالي؛ لم تعد مرارته تؤلمه واعترته رغبة ضعيفة، لكنها واضحـة، في العديد من النسـاء اللواتي شاهدهن في الصباح يتنزهن تحت القناطر. ولسوء الحظ، طغى اكتشاف خطير جداً على هذا التحسن المتواضع: هؤلاء النساء كن يعبرن بقربه دون أدنى بادرة اهتمام؛ لقد اعتبرنه ضمن الموكب المرضي لشاربي المياه المعدنية الشاحبين.

قالت له الدكتورة فرنتيسكا بعد أن فحصته في الصباح: "كما ترى، حالتك أفضل. وعلى الأخص، حافظ على الحمية بدقة. من حسن الحظ أن المريضات اللواتي تصادفهن تحت القناطر هن أكبر سناً وأسوأ صحة من أن يبعثن فيك الاضطراب؛ وهذا أفضل بالنسبة لك، لأنك بحاجة للهدوء".

أخذ هافل يَدُسُّ قميصه تحت بنطاله؛ وأثناء قيامه بذلك، وقف أمام المرآة الصغيرة المعلقة في الركن فوق المغسلة، وراح يتملى وجهه بمرارة. ثم قال بحزن كبير: "إنك مخطئة، لاحظت أنه يوجد بين العجائز اللواتي يتنزهن تحت القناطر بضع فتيات جميلات، لكنهن لم يعرنني أي اهتمام.

– أجابت فرنتيسكا: "يسرني أن أصدق كل ما تريده، ما عدا هذا!" أشاح الدكتور هافل بوجهه عن المشهد الحزين الذي يراه في المرآة، وحدق في عيني الدكتورة الساذجتين والوفيتين؛ فشعر حيالها بالامتنان، مع معرفته بأنها لم تقم إلا بإبداء رأيها في تقليد، رأيها في الدور الذي اعتادت على رؤيته يؤديه (الدور الذي كانت تنتقده لكن دوماً بحنان).

ثم طُرِقَ الباب. فتحته فرنتيسكا وأطل منه رأس شاب ينحني باحترام. "آه هذا أنت! لقد نسيتُكَ تماماً!" أدخلت الشاب إلى حجرة المعاينة وشرحت لهافل: "منذ يومين يحاول رئيس تحرير الصحيفة المحلية لقاءك".

بدأ الشاب يعتذر بتزلف عن إزعاج الدكتور هافل بلا مبرر، واجتهد (للأسف! بتعبير متوتر توتراً مُنَفِّراً بعض الشيء) في استخدام لهجة رقيقة: على الدكتور هافل ألا يلوم الدكتورة لكشفها عن وجوده، لأن الصحفي كان سيصل إلى اكتشاف ذلك في كل

الأحوال، ولو في حمام المياه المعدنية إذا اقتضى الأمر؛ وعلى الدكتور هافل أيضاً ألا يلوم الصحفي على وقاحته لأنها صفة ضرورية في مهنة الصحافة وبدونها لن يتمكن من كسب معيشته. ثم أسهب في الكلام عن المجلة المصورة التي تنشرها المحطة مرة في كل شهر والتي يتضمن كل عدد منها مقابلة مع مريض مشهور يتعالج في الحمة؛ فذكر على سبيل المثال العديد من الأسماء، منها اسم عضو في الحكومة وآخر لمغنية محترفة وأيضاً اسم لاعب هوكي على الجليد.

– قالت فرنتيسكا: "كما ترى، لا تهتم نساء القناطر الجميلات بك، لكنك، بالمقابل، تهم الصحفيين.

– قال هافل: "إنه انحطاط بشع" لكنه كان مسروراً بهذا الاهتمام، فابتسم للصحفي ورفض عرضه بمواربة واضحة لدرجة تثير العطف "فيما يخصني، لستُ عضواً في حكومة ولا لاعب هوكي ولا مغنية طبعاً. من المؤكد أنني لا أريد التبخيس من قيمة أعمالي العلمية، لكنها تهم الأخصائيين أكثر مما تهم الجمهور العريض".

– أجاب الشاب بصراحة متهورة: لستَ من أريد إجراء حديث معه؛ وحتى لم يخطر ذلك على بالي. إنها زوجتك. علمت أنها ستزورك أثناء علاجك.

– قال الدكتور هافل بمنتهى البرود: "أنت أدرى مني" ثم دنا من المرآة، وعاين من جديد وجهه الذي لم يَرُقْ له. زَرَّرَ ياقة قميصه وهو صامت، بينما استغرق الصحفي الشاب في ارتباك جعله يفقد بسرعة وقاحته المهنية التي أعلن عنها بفخر؛ فاعتذر للدكتورة وشعر بالراحة حين أصبح خارجاً.

3

كان الصحفي أرعناً أكثر منه غبياً. لم يكن يقدر كثيراً بحلة الحمة المعدنية، إلا أنه كان يترتب عليه، لأنه المحرر الوحيد فيها، بذل ما بوسعه لكي يملأ كل شهر صفحاتها الأربع والعشرين بالصور والكلمات الضرورية. كان يجد لذلك سبيلاً في الصيف لأن الحمة تعج بضيوف مرموقين، فتأتي عدة فرق موسيقية لتقيم الحفلات في الهواء الطلق، والأخبار الصغيرة المثيرة متوفرة. أما أثناء الأشهر الماطرة، فقد كانت الفلاحات والسأم يجتاحون القناطر، وكان يجب اقتناص أية فرصة. لذلك، حين علم بالأمس أن الحمة تضم بين ضيوفها الآن زوج ممثلة مشهورة، الممثلة نفسها التي تمثل في الفيلم البوليسي الجديد الذي لم يزل ينجح منذ بضعة أسابيع في تسلية المستحمين المرضى، تَنَفَّسَ الصعداء وجَدَّ في بحثه حالاً.

لكنه أصبح خجلاً الآن.

وفي الحقيقة، بما أنه كان يشك بنفسه دوماً، فقد كان في حالة خضوع ذليلة بالنسبة للناس الذين يعاشرهم؛ ويبحث خائفاً في نظراتهم عن تأكيد لحاله وقيمته. لذلك ظن أنهم وجدوه مثيراً للرثاء وأحمقاً ومزعجاً، وهذه الفكرة أَرَقَتْهُ، لا سيما وأن الرجل الذي أبدى رأيه فيه كان جذاباً للوهلة الأولى. لهذا السبب، بعد أن طارده القلق، تلفن للدكتورة في اليوم نفسه كي يسألها عن حقيقة زوج الممثلة، فعلم أن هذا السيد ليس عالماً كبيراً في الميدان الطبي وحسب، إنما هو شخصية مشهورة جداً حتى بدون ذلك، فهل يعقل أن لا يكون الصحفي قد سمع بصيته أبداً؟.

ردّ الصحفي بالنفي فقالت له الدكتورة بدماثة: "طبعاً، فأنت مازلت طفلاً. ومن حسن الحظ أنك لست إلا جاهلاً في الاختصاص الذي برع فيه هافل بامتياز".

عندما أدرك، بعد أن طرح أسئلة أخرى على أشخاص آخرين، أن الاختصاص الذي ألمحت إليه الدكتورة ليس إلا الشبقية، وهو الميدان الذي لا يوجد فيه نظير للدكتور هافل في بلده على ما يبدو، شعر بالخجل من اتهامه بالجاهل ومن تأكيده فوق ذلك لهذا الحكم بسبب عدم سماعه بصيت الدكتور هافل. وبما أنه حلم دوماً بأن يصبح خبيراً مثل ذلك الرجل، فقد استاء تماماً لأنه تصرف أمامه بالتحديد، أمام معلمه، كأحمق مقيت؛ وصار يتذكر ثرثرته ومزاحه الأحمق وقلة ذوقه، و لم يسعه إلا أن يسلّم صاغراً بصحة الحكم الذي اعتقد أنه قرأه في الصمت المستنكر للمعلم وفي نظرته الشاردة المحدقة في المرآة.

ليست الحمة التي حدثت فيها هذه القصة كبيرة، وجميع الناس يلتقون فيها عدة مرات في اليوم شاؤوا أم أبوا. لم يصعب إذاً على الصحفي الشاب أن يقابل سريعاً الرجل الذي يشغل تفكيره. التقاه قبيل نهاية الظهيرة بين حشد المصابين بالكبد يذهب ويجيء تحت القناطر.

كان الدكتور هافل يرتشف ماءً كريه الرائحة من طاسة من الخزف الصيني. اقترب منه الصحفي الشاب وبدأ يقدم له الاعتذارات بارتباك. لم يخطر بباله البتة، كما ادعى، أن زوج السيدة هافل الممثلة المشهورة، هو نفسه الدكتور هافل وليس هافلاً آخر؛ لأنه يوجد كثيرون باسم هافل في بوهيميا، ومع الأسف لم يتبين الصحفي العلاقة بين زوج الممثلة والطبيب المشهور الذي سمع طبعاً بصيته منذ

زمن طويل، ليس فقط كقطب في عالم الطب، إنما أيضاً – كان بمقدوره على الأرجح السماح لنفسه بقول ذلك – بحسب الشائعات والطرائف المتنوعة.

لا يوجد أي سبب لإنكار أن الدكتور هافل بمزاجه الكئيب استمع إلى كلمات الشاب بسرور، ولا سيما تلميحه إلى الشائعات والطرائف التي كان الدكتور هافل يعرف تماماً أنها تخضع، مثل الإنسان نفسه، لنواميس الشيخوخة والنسيان.

قال للشاب "لست مضطراً للاعتذار" وحين شاهد ارتباكه، أمسكه برفق من ذراعه ودعاه للتسكع معه تحت القناطر. وأكد لكي يطمئنه " ذلك لا يستحق الذكر" إلا أنه رَكْزَ في الوقت ذاته بمجاملة على تلك الاعتذارات وكرّر مراراً : "هكذا إذاً، سمعتَ بصيتي؟" وفي كل مرة كان يقهقه بضحكة سعيدة.

وافق الصحفي بعصبية: "أجل لكنني لم أكن أتخيلك بتاتاً على هذا النحو".

– سأل الدكتور هافل باهتمام صادق: "وكيف كنتَ تتخيلني؟" وبينما راح الصحفي يغمغم بأمر ما وهو لا يجد شيئاً يقوله، استطرد هافل بكآبة: "أعلمُ أن شخصيات الروايات والأساطير أو الحكايات الطريفة صُنِعَتْ، على العكس منا، من مادة غير معرضة للتلف مع الزمن. كلا، لا أعني بذلك أن الأساطير والحكايات الطريفة خالدة؛ فمن المؤكد أنها تهرم أيضاً، وأن شخصياتها تهرم معها؛ لكنها تهرم دون أن تتغير ملامحها أو تتزيف، إنما تتلاشى وتُمحى ببطء، وتنتهي إلى التبدد في شفافية الفضاء.

هكذا سيختفي بيبي موكو وهافل هاوي المجموعات، وكذلك مونيسيز وبالاس أثينا أو القديس فرانسوا ولسيز، ولكن تخيل أن فرانسوا سيتلاشى ببطء مع العصافير الصغيرة الجاثمة على كتفه ومع الظبي الذي يتمسح بساقه ومع إضمامة أغصان الزيتون التي تمنحه ظله، تخيل أن كل لوحته ستمحي معه، وتتحول إلى زرقة مواسية معه، أما أنا يا صديقي العزيز، كما هي حالي الآن، عار، ومقتلع من الأسطورة، سأختفي في خلفية مشهد طبيعي ذي ألوان صارخة بشراسة وتحت نظرة شاب حيوي بطريقة متهكمة".

لقد حيّر خطاب هافل المسهب الصحفي وحمسه في آنٍ معاً، وظل الرجلان يتنزهان لفترة طويلة في الليل الذي بدأ يحل. عندما افترقا، صرح هافل بأنه ملّ من طعام الحمية، وأنه سيتناول بسرور عشاءً لذيذاً في اليوم التالي؛ وسأل الصحفي إن كان يقبل مشاركته فيه.

ووافق طبعاً.

4

– قال الدكتور هافل حين جلس إلى الطاولة مقابل الصحفي وتسلم قائمة الطعام: "لا تخبر الدكتورة بذلك، فلدي فكرة مبتكرة عن الحمية: أتجنب بعناية كل الأطباق التي لا أشتهيها" ثم سأل الشاب عما يرغب بتناوله من المقبلات.

لم يكن المحرر معتاداً على تناول الكحول قبل الوجبات، ولأنه لم يجد شيئاً آخر يقوله، أجاب "فودكا".

بدا الدكتور هافل مستاء: "الفودكا، إنها تفوح برائحة السروج الروسية!"

– قال الشاب: "هذا صحيح"، ومنذ تلك اللحظة ضاع. كان يشبه متقدماً للشهادة الثانوية أمام لجنة الامتحان. لا يسعى ليقول ما يفكر به وليفعل ما يريده، بل يجهد نفسه لإرضاء الممتحنين؛ يجهد نفسه ليحزر أفكارهم ونزواتهم وأذواقهم؛ ويتمنى أن يكون جديراً بهم. لم يكن ليسلّم، لأي سبب في العالم، بأن عشاءاته كانت سيئة ومبتذلة، وأنه لم تكن لديه أية فكرة عن النبيذ الذي يجب عليه شربه مع لحم ما. وكان الدكتور هافل يعذبه عذاباً لا نهاية له باستشارته دائماً حول اختيار المقبلات والوجبة الأساسية والنبيذ والجبنة.

عندما تأكد الشاب الصحفي أن اللجنة الفاحصة وضعت له علامة سيئة في الامتحان الشفهي للتذوق، أراد تعويض هذه الخسارة بحماس بالغ، فتفحص علانية، أثناء الاستراحة بين المقبلات والوجبة الأساسية، النساء الحاضرات في المطعم، وحاول بعد ذلك البرهنة على اهتمامه وتجربته ببضع تعليقات. أخفق من جديد. عندما قال بأن المرأة الشقراء الجالسة بعد طاولتين ستكون عشيقة ممتازة بالتأكيد، سأله الدكتور هافل دون أي تحامل عما جعله يقول ذلك. ردّ المحرر بإجابة غامضة، وحين استفهم منه الدكتور عن تجاربه مع الشقراوات، تلعثم بكذبات لا تصدق وسكت بسرعة.

ومن جانبه شعر الدكتور هافل بالراحة والسعادة إزاء نظرات الصحفي المعجبة. طلب زجاجة نبيذ أحمر لكي ترافق

اللحم، وقام الشاب، بعد أن أنعشه الكحول، بمسعى جديد كي يظهر نفسه جديراً بحظوة المعلم؛ فتكلم بإسهاب عن فتاة التقاها مؤخراً و لم يزل يغازلها منذ بضعة أسابيع على أمل النجاح. كان اعترافه غامضاً فترتّب على الابتسامة المغتصبة المترامية على وجهه، بالتباسها المقصود، الإفصاح عما لم يقله، بيد أنها لم تفصح إلا عن ريبة مقموعة بعناء. شعر هافل تماماً بكل هذا، وبعد أن استثير تعاطفه، صار يسأل الصحفي عن شتى الصفات الجسدية للفتاة المذكورة، حتى يتيح له التركيز على الموضوع الذي يؤثره، وحتى يفسح له المجال للكلام بمنتهى الحرية. إلا أن الشاب فشل هذه المرة أيضاً: كانت إجاباته غامضة على نحو ملفت للنظر؛ فلم يستطع أن يصف بشيء من الدقة العمارة العامة لجسد الفتاة ولا المظاهر المختلفة لشكلها الخارجي، وبدرجة أقل أيضاً طبعها. إذاً، انتهى الدكتور هافل إلى أن يجعل من نفسه موضوع الحديث بكامله، ومستسلماً شيئاً فشيئاً لنشوة الفرح في الأمسية ولنشوة النبيذ، صار يفرض على الصحفي مساررة روحية مؤلفة من ذكرياته الشخصية ونوادره ونكاته.

راح الصحفي يشرب نبيذه ببطء ويصغي، وصارت تعتريه أثناء ذلك مشاعر متناقضة: كان قبل كل شيء بائساً: فهو يشعر بنفسه تافهاً وأحمقاً ويبدو بمظهر المبتدئ المتردد أمام معلم قدير، ويحس بالخجل من التكلم؛ لكنه كان سعيداً في الوقت نفسه: فهو يشعر بالزهو لأن المعلم يجلس مقابله ويتحدث معه كرفيق، ويبوح له بكل أنواع الملاحظات النفيسة جداً.

حين أخذ الدكتور هافل يستفيض، رغب الشاب في التكلم بدوره، والإدلاء بدلوه وموافقته على رأيه والظهور كرفيق أنيس؛ لذلك انزلق من جديد إلى الحديث عن صديقته، فسأل هافل بسرية إن كان يوافق على لقائها في اليوم التالي لكي يقول له رأيه فيها على ضوء تجربته؛ وبعبارة أخرى (أجل، إنها الكلمة التي تفوه بها في اندفاعه) لكي *يصادق* عليها.

من أين جاءته هذه الفكرة؟ ألم تولد فجأة من الثمل والرغبة المحمومة بقول شيء ما؟

ومهما بلغت عفويتها، فقد كان الصحفي يرجو منها ثلاث فوائد:

- قد يخلق تآمر أهل الخبرة الشائع والسري (التصديق) بينه وبين المعلم علاقة سرية، وقد توطد الرفقة والتواطؤ الذي كان الصحفي يصبو إليه.

- وإذا أعطى المعلم موافقته (كما كان الشاب يأمل، لأن الفتاة المذكورة استهوته بشدة) فسيكون ذلك إقراراً للشاب ولاختياره وذوقه، وسيكون بهذا قد ارتقى من مرتبة مبتدئ إلى مرتبة صاحب في نظر المعلم، وبذلك سيغدو مهماً بحسب رأيه الخاص.

- وأخيراً: كانت الفتاة نفسها ستحصل على مزيد من القيمة في نظر الشاب وقد تتحول المتعة التي سيجنيها من حضوره، من متعة وهمية إلى متعة واقعية (لأن الشاب كان يشعر أحياناً أن العالم الذي يعيش فيه هو بالنسبة له عبارة عن متاهة من المعايير التي لم يكن معناها يظهر له إلا بطريقة مبهمة جداً والتي لا تفلح بالتحول من معايير ظاهرة إلى معايير واقعية إلا بعد *اختبارها*).

5

حين استيقظ الدكتور هافل في اليوم التالي، شعر أن مرارته تؤلمه قليلاً بسبب عشاء الأمس، وحين نظر إلى ساعته، تبين أن عليه أن يكون في جلسة المعالجة بالماء خلال نصف ساعة، وأن عليه بالتالي العجلة، مع أن العجلة هي إحدى الأمور التي يبغضها كثيراً في العالم، وبينما كان يسرح شعره، شاهد في المرآة وجهاً شعر أنه منفّر. وهكذا بدأ النهار بداية سيئة.

لم يكن لديه وقت حتى لتناول إفطاره (هذا أيضاً بدا له علامة سيئة، لأنه كان يحرص على عاداته اليومية المنتظمة) وتوجّه بسرعة إلى منشأة الحمة المعدنية. حين وصل إليها، دلف إلى رواق طويل، طرق باباً فظهرت شقراء جميلة ترتدي قميصاً أبيض، لفتت نظره بهيئة عابسة إلى تأخره ودعته للدخول. بدأ هافل يخلع ملابسه في حجرة الحمام خلف حاجز. سمع بعد برهة "أما انتهيت؟" كان صوت المسدة الذي يزداد فظاظة يهين الدكتور هافل ويحرضه على الثأر (يا للأسف! لم يكن الدكتور هافل يعرف منذ سنوات إلا شكلاً وحيداً للثأر من النساء!) عندئذ خلع سرواله وقلص بطنه، ثم شدّ ظهره وأراد الخروج من حجرة الحمام، لكنه اشمأز بعد ذلك من هذا الجهد المهدد لكرامته الذي كان سيبدو له مثيراً للسخرية كثيراً عند أي شخص آخر، فترك بطنه يتهدل براحة وتوجه نحو المغطس الكبير بلا مبالاة ارتأى أنها وحدها خليقة به، وغمر نفسه بالماء الفاتر.

راحت المسدة تفتح الصنابير على لوحة القيادة دون أن تكترث البتة بصدره وبطنه، وحين تمدد الدكتور هافل في قاع المغطس

أمسكت ساقه اليمنى وركزت تحت الماء، مقابل باطن قدمه، فوهة الأنبوب التي أخذ تدفق شديد ينبجس منها. حرك الدكتور هافل ساقه لأنه شعر بدغدغة فذكّرته المسدة بالنظام.

لعله لم يكن من العسير طبعاً إرغام الشقراء عن التخلي عن فظاظتها القاسية بمزحة أو ثرثرة أو موضوع لطيف، لكن هافل كان منزعجاً جداً ومهاناً. قال لنفسه إنها تستحق العقاب ولم يشأ أن يسهل الأمور عليها. وعندما بدأت تركز الأنبوب تحت أسفل بطنه بينما هو يستر أعضاءه التناسلية بيديه، لأنه يخشى التأذي من الدفق العنيف، سألها عما ستقوم به في ذلك المساء. سألته دون أن تنظر إليه عن سبب اهتمامه ببرنامجها. فأوضح لها بأنه يسكن وحيداً في حجرة ذات سرير واحد وأنه يتمنى مجيئها لمشاركته فيها. فقالت له الشقراء: "أعتقد أنكَ أخطأتَ العنوان" وأمرته أن ينقلب على بطنه.

إذاً، أصبح الدكتور هافل متمدداً على بطنه في قاع المغطس، وراح يرفع ذقنه لكي يتنفس. شعر بالدفق العنيف يدغدغ فخذيه وهو مسرور من النبرة الحازمة التي خاطب بها المسدة. لأن الدكتور هافل عاقب دوماً النساء المتمردات والمتعجرفات أو المدللات، باستدراجهن بفتور ودون أي حنان وبصمت تقريباً، إلى أريكته التي يصرفهن عنها بمنتهى الفتور أيضاً. احتاج لبرهة كي يدرك أنه خاطب المسدة بفتور ملائم ودون أي حنان، إلا أنه لم يستدرجها، وعلى الأرجح قد لا يستدرجها إلى أريكته. أدرك أنه مرفوض وهذه إهانة جديدة. وغدا سعيداً حين ألفى نفسه وحيداً في حجرة الحمام متدثراً بالمنشفة.

خرج بعد ذلك مسرعاً من المنشأة، وتوجه نحو لوحة إعلانات سينما ***لوتاث*** التي يعرض فيها ثلاث صور إعلانية، إحداها صورة زوجته

التي تبدو فيها مذعورة وجاثية أمام جثة. راح الدكتور هافل يتأمل وجهها الرقيق الذي شوّهه الهلع، فشعر بحب غامر وحنين جامح. ظل فترة مديدة دون أن يفلح في تحويل نظره عن الواجهة الزجاجية، ثم قرر المضي إلى فرنتيسكا.

6

قال حين أذنت الدكتورة لمريضها بالانصراف، ودعته للدخول إلى حجرة المعاينة: "اطلبي المقسم الخارجي من فضلك، يجب أن أكلم زوجتي".

– هل حدث مكروه؟

– قال هافل: "أجل، أشعر بالوحدة!"

تأملته فرنتيسكا بارتياب، أدارت قرص الهاتف على رقم المقسم الخارجي ورددت الرقم الذي يمليه هافل عليها. ثم أغلقت السماعة وقالت: "أنت تشعر بالوحدة؟"

– قال هافل بتبرم: ولم لا؟ إنك تشبهين زوجتي. تجدينني رجلاً توقف عن الحياة منذ زمن طويل. إنني بسيط وأعزل وحزين. لقد تقدمت في العمر. ويمكنني أن أصارحك بأن هذا قلما يكون ممتعاً.

– أجابته الدكتورة: كان يجب أن يكون لك أطفال. ولو حدث ذلك لما فكرتَ كثيراً بنفسك. أنا أيضاً تقدمت في العمر ولكنني لا أفكر بذلك. عندما أرى ابني يكبر، أتساءل كيف سيبدو حين يغدو رجلاً ولا أنوح على السنين التي انقضت. تخيل أنه قال لي البارحة: بماذا يفيد الأطباء ما دام الناس سيموتون لا محالة؟ ما رأيك بذلك؟ وبماذا كنت ستجيبه على هذا السؤال؟

لحسن الحظ، لم تسنح الفرصة لهافل كي يجيب لأن الهاتف رَنَّ. رفع السماعة وحين سمع صوت زوجته، أخبرها في الحال بأنه حزين ولا يوجد أحد يتكلم معه، ولا أحد يرغب برؤيته وأنه لا يحتمل البقاء وحيداً هنا.

تكلم صوتٌ خافتٌ في السماعة، حذرٌ في البداية، ومشلولٌ ومتلعثمٌ، لكنه انتهى إلى الخضوع قليلاً بتأثير كلمات الزوج.

أخذ هافل يقول في الميكروفون: "تعالي إلى هنا من فضلك، تعالي لمرافقتي هنا حالما تستطيعين!" وسمع زوجته تجيبه بأنه يسعدها المجيء لكن لديها عرض في كل الأيام تقريباً.

– قال هافل: "في كل الأيام تقريباً وليس في كل الأيام"، وسمع زوجته تجيبه بأنها حصلت على إجازة في اليوم التالي، لكنها لا تعلم فيما إن كان الأمر يستحق المجيء لنهار واحد.

– رَدَّ هافل بسرعة: "كيف يمكنك قول هذا؟ أنت لا تعلمين إذاً قيمة نهار في الحياة القصيرة؟

– سأل الصوت الخفيض في السماعة: ولستَ عاتباً علي حقاً؟

– لماذا سأعتبُ عليك؟

– بسبب الرسالة، أنت تعاني الآلام وأنا أزعجك برسالة حمقاء من إمرأة غيورة".

غمر الدكتور هافل مكبر الصوت بموجة حنان وأعلنت زوجته (بصوت أصبح الآن متأثراً تماماً) أنها ستأتي في اليوم التالي.

– قالت فرنتيسكا حين أقفل هافل السماعة: "رغم ذلك أحسدكَ فلديك كل شيء. عشيقات بقدر ما تريد وأيضاً أسرة جميلة".

راح هافل ينظر إلى صديقته التي تتكلم بحسد، لكنها على الأرجح أسعد من أن تستطيع إضمار الحسد لأي إنسان، وشعر بالشفقة عليها لأنه يعلم أن الفرح الذي يهبه الأطفال لا يمكن استبداله بأفراح أخرى، وأن فرحاً يرزح تحت وطأة واجب الحلول مكان أفراح أخرى هو فرح سريع الزوال.

ذهب بعد ذلك للغداء، ثم أوى إلى القيلولة، ولما استيقظ، تذكّر أن الصحفي الشاب ينتظره في المقهى حتى يعرّفه على صديقته. ارتدى ملابسه وخرج. أثناء نزوله درج منزل الشفاء، لمح في البهو عند حجرة الملابس، إمرأة طويلة تشبه فرس السباق الأصيلة. آه، لم يكن ينقص إلا هذا! لأن أولئك النسوة بالتحديد هن اللواتي يولهن الدكتور هافل دوماً. ناولت سيدة حجرة الملابس المعطف إلى المرأة الطويلة فتقدم هافل لمساعدتها على ارتداء الكم. شكرته المرأة الشبيهة بالفرس بفتور فقال لها هافل: "هل يمكنني تقديم خدمة أخرى لك يا سيدتي؟" وابتسم لها، لكنها أجابت بالنفي دون أن تبتسم وخرجت على عجل.

شعر هافل بالإهانة من ذلك فتوجه نحو المقهى وهو يحس بحالة من العزلة المتجددة.

7

كان الصحفي جالساً منذ فترة طويلة إلى جانب صديقته (وقد اختار مكاناً يستطيع منه رؤية المدخل) ولم يفلح في التركيز على الحديث الذي كان يضج بينهما عادة بفرح وبلا كلل. كان يشعر بالتهيب بسبب هافل. حاول للمرة الأولى منذ تعرّفه على صديقته، تفحصها بعين

ناقدة، وبينما راحت تتكلم (من حسن الحظ أنها لم تكفّ للحظة عن الكلام بحيث لم يفطن أحد لاضطراب الشاب) اكتشف في جمالها عدة عيوب صغيرة؛ فَأَقْلَقَتْهُ، لكنه اطمأن في الحال إلى فكرة أن هذه القائمة من العيوب كانت تجعل جمالها أكثر جاذبية وأن وجودها برمته يغمره بمنتهى اللطف بسبب تلك العيوب.

لأن الشاب كان يحب صديقته حباً جماً.

لكنه إذا كان يحبها حباً جماً، فلماذا استسلم إذاً لفكرة *التصديق* عليها من قبل طبيب داعر، وهي فكرة مهينة بالنسبة لها؟ وحتى إذا منحناه الظروف المخففة، مفترضين على سبيل المثال أن ذلك ليس إلا أمراً عادياً بالنسبة له، فكيف يحدث أن تقلقه مجرد لعبة بسيطة إلى هذه الدرجة؟

ليست لعبة. لم يكن الشاب يعرف حق المعرفة ما يجب عليه تصوّره عن صديقته، وقد كان عاجزاً حقاً عن تحديد سحرها وجمالها.

وهل هو ساذج وغِرٌّ إذاً بحيث لا يستطيع تمييز المرأة الجميلة عن القبيحة؟

لا، لم يكن محروماً من التجربة في هذا المجال، فقد سبق له أن تعرف إلى العديد من النساء وخاض معهن كل أنواع المغامرات العاطفية، لكنه اهتم بنفسه دوماً اهتماماً فائقاً أكثر من انشغاله بهن. لنتأمل على سبيل المثال هذا الحدث البسيط الملفت للانتباه: كان يتذكر تماماً لباسه حين خرج مع فلانة، ويعلم أنه في يوم كذا وكذا ارتدى بنطالاً فضفاضاً وأنه استاء من ذلك، ويعلم أنه ارتدى في يوم آخر كنزة صوفية بيضاء بدا فيها بمظهر رياضي رشيق، إلا أنه لم يكن يتذكر مطلقاً لباس صديقاته.

أجل، هذا ملفت للانتباه فعلاً: فقد كان يعكف عند مغامراته القصيرة على دراسات طويلة ودقيقة لمظهره الشخصي، بينما لم يكن لديه إلا حس عام وسطحي حيال من يواجهه من الجنس الأنثوي؛ لأنه كان يهتم بالصورة التي يُظهرها لرفيقته أكثر من الصورة التي تبديها له رفيقته. ذلك لا يعني أنه ليس مهماً بالنسبة له أن تكون الفتاة التي تخرج معه جميلة أو غير جميلة. لأن عيون الآخرين تشاهدانه وتحكم عليهما معاً (عيون الناس) بالإضافة إلى أن عيني رفيقته تشاهده، وكان شديد الحرص على ما يرضي الآخرين من صديقته، لأنه يعلم أنهم سيحكمون من شخصية صديقته على اختياره وذوقه ومستواه، أي عليه هو نفسه. وبما أن الأمر يتعلق تماماً بحكم الآخرين، فإنه لم يتجرأ على الاعتماد على عينيه؛ إنما على العكس، رضي حتى ذلك الحين بأن يصيخ السمع إلى صوت الرأي العام ويطابقه معها.

لكن هل هنالك وجه للمقارنة بين صوت الرأي العام وصوت معلم وخبير؟ أخذ يتطلع بفارغ الصبر إلى المدخل، ولما شاهد أخيراً خيال الدكتور هافل من خلال الباب الزجاجي، تصنّع المفاجأة، وقال لصديقته إن رجلاً شهيراً يريد إجراء مقابلة معه عما قريب لأجل مجلته يدخل بمحض الصدفة إلى المقهى. توجَّه لملاقاة الدكتور هافل وقاده إلى طاولته. لم تلبث الفتاة بعد أن قطعت حديثها بضع لحظات من التعارف أن استأنفت الموضوع بثرثرة مستفيضة.

أخذ الدكتور هافل الذي صرفته منذ عشر دقائق المرأة الشبيهة بحصان السبق يتأمل ملياً المراهقة المغردة وهو لم يزل مسترسلاً في مزاجه الكئيب. لم تكن المراهقة فائقة الجمال جداً لكنها لطيفة جداً، وليس هناك أدنى شك في أن الدكتور هافل (الذي قلنا إنه كالموت، ويأخذ أي

شيء) سيأخذها لدى أدنى إيماءة عن طيب خاطر. وفي الحقيقة كان لديها العديد من القسمات المتميزة بغموضها الجمالي: إذ تغطي جذر أنفها قطرات دقيقة من النمش الذهبي، يمكن اعتبارها عاهة على بياض الجلد. كما يمكن اعتبارها أيضاً جوهرة طبيعية على ذلك البياض؛ كانت ممشوقة إلى أبعد حد، وهو ما يمكن تفسيره كعيب بالنسبة للأبعاد الأنثوية المثالية، إلا أنه يمكن تفسيره، بالمثل، كرشاقة لطيفة للطفولة الدائمة في المرأة؛ كانت ثرثارة جداً وهو ما يمكن اعتباره عادة مستهجنة، لكن يمكن اعتباره أيضاً تصرفاً موفقاً يتيح لرفيقها الاسترسال في تأملاته الخاصة دون أن يتعرض لخطر المفاجأة.

راح الصحفي يراقب خفية وبقلق وجه الطبيب، ولأن هذا الوجه بدا له متأملاً بتجهم (وهو ما لم يكن بشير خير) نادى النادل وطلب ثلاثة أقداح كونياك. احتجَّت الشابة مدعية أنها لا تشرب، ثم أسهبت في إقناع نفسها بأنه يمكنها وعليها أن تشرب، وأدرك الدكتور هافل أن هذه المخلوقة الغامضة جمالياً التي تكشف في تدفق كلماتها كل بساطة روحها، ستكون على الأرجح إخفاقه الثالث في هذا النهار، إذا ما قام بمحاولة، لأن الدكتور هافل الذي كان فيما مضى ملكاً كالموت لم يعد كما كان.

حمل النادل بعد ذلك الكونياك، فرفعوا جميعاً أقداحهم استعداداً لشرب النخب، وحدق الدكتور هافل في عيني الفتاة الزرقاوين كما يحدق في عينين معاديتين لشخص لا يهمه أمره. وعندما أسر هاتين العينين كما يأسر الأعداء، بادلهما العداوة، ولم يشاهد أمامه فجأة إلا مخلوقة غدت سمتها الجمالية واضحة تماماً: مراهقة هزيلة، ذات وجه ملطخ بقذارة النمش، وثرثارة على نحو غير محتمل.

مع أن هذا التحول جلب السرور للدكتور هافل مثلما جلبت له السرور نظرة الشاب المركزة عليه باستفهام قلق، إلا أن تلك الأفراح كانت في غاية الضآلة مقابل مرارة الهاوية التي تتكشف فيه. حدَّث نفسه بأنه قد يكون من الخطأ إطالة هذا اللقاء الذي لن يستطيع أن يجلب له أي سرور؛ لذلك افتتح الكلام وألقى أمام الشاب وصديقته عدة نكات لطيفة وعَبَّرَ عن سعادته لأن الفرصة سنحت له بقضاء إحدى أكثر اللحظات متعة معهما، ثم أعلن أن هنالك من ينتظره واستأذن بالانصراف.

عندما وصل الدكتور هافل إلى الباب الزجاجي، ضرب الشاب جبهته وادعى أنه نسي تماماً الاتفاق على موعد من أجل إجراء المقابلة. خرج مستعجلاً ولحق بهافل في الطريق. سأله: "إذاً، كيف وجدتُها؟"

نظر الدكتور هافل ملياً في عيني الشاب الذي كان تلهفه العجيب يثير العطف.

وبالمقابل، ضايق صمت الدكتور هافل الصحفي، فبادر للقول: "أعرف، إنها ليست جميلة.

– قال هافل: بالطبع ليست جميلة".

طأطأ الصحفي رأسه: "وثرثارة قليلاً، لكن فيما عدا ذلك لطيفة!

– قال هافل: أجل، لطيفة. لكن قد يكون الكلب أيضاً لطيفاً، وكذلك الكناري أو البط الذي يتخطر في ساحة المزرعة. المهم في الحياة ليس الاستحواذ على أكبر عدد ممكن من النساء، لأن ذلك ليس إلا نجاحاً ظاهرياً. بل المقصود أن ينمّيه كحاجة ملحة لنفسه. تذكر جيداً يا صديقي بأن الصياد الحقيقي يلقي الأسماك الصغيرة في الماء".

أخذ الشاب يعتذر، وأكّد أنه كانت لديه شكوك جدية بشأن صديقته، ويشهد على ذلك أنه طلب رأي الدكتور هافل.

- قال هافل: "لا أهمية لذلك. فلا تشغل نفسك به".

لكن الشاب استمر في الاعتذار وتبرير سلوكه، وانتهى إلى القول بأن عدد النساء الجميلات الموجودات في الحمة قليل في الخريف وأنه كان مضطراً لأخذ ما يجده.

ردَّ الدكتور هافل: "لا أتفق معك في هذه النقطة. شاهدتُ هنا العديد من النساء الجذابات جداً. لكنني سأصارحك بأمر. ثمة جمال ظاهري للمرأة التي يعتبرها الذوق القروي خطأً جميلة. ومن ثم يوجد الجمال الحقيقي الشبقي للمرأة. لكن المؤكد أن معرفة ذلك الجمال من النظرة الأولى ليس أمراً سهلاً. إنه فن" ثم صافح الشاب وابتعد.

8

أصبح الصحفي يائساً: أدرك أنه غبي لا علاج له، تائه في صحراء شبابه المترامية (كان يظنها مترامية)؛ أدرك أن الدكتور هافل وضع له علامة سيئة؛ تراءى له دون أي مجال للشك أن صديقته تافهة ومنفرة وغير جميلة. حين عاد للجلوس بجانبها، توهّم بأن جميع رواد المقهى، مثل النادلين اللذين يذهبان ويجيئان، يعرفون ذلك وينظرون إليه بشفقة مهينة. طلب الحساب وأوضح لصديقته أن لديه عملاً مستعجلاً وأنه مضطر لمغادرتها. اغتمت، وشعر بقلبه ينقبض: فقد كان يعرف حق المعرفة أنه على وشك أن يلقيها ثانية في الماء مثل صياد حقيقي، مع أنه لم يزل يحبها في قرارة نفسه (سراً وبنوع من الخجل).

لم يومض اليوم التالي بأي بصيص نور في مزاجه الكئيب، وحين التقى بالدكتور هافل أمام منشأة الحمة المعدنية برفقة سيدة أنيقة، رزح تحت وطأة إحساس بالحسد يكاد يشبه الكراهية تقريباً: فتلك المرأة جميلة على نحو فاضح، ومزاج الدكتور هافل الذي أومأ له بفرح حين لمحه منشرح على نحو فاضح، حتى أن الصحفي شعر أن بؤسه ازداد.

– قال هافل: "أقدم لك رئيس تحرير مجلة الحمة. سعى للتعرف علي فقط ليحظى بمقابلتك".

حين أدرك الشاب أنه إزاء إمرأة شاهدها على الشاشة، لم يفتأ ارتباكه يتزايد، أكرهه هافل على مرافقتهما، وراح الصحفي يشرح مشروع مقابلته متلعثماً وأردفه بفكرة جديدة: أن ينشر في مجلته مقابلة مزدوجة للسيدة هافل والدكتور.

– أجاب هافل بسرعة: "يا صديقي العزيز، كانت الأحاديث التي تبادلناها لطيفة وحتى ممتعة بفضلك، لكن أخبرني لماذا يترتب نشرها في صحيفة مخصصة للمصابين بالكبد وبالقروح في الأمعاء؟

– تهكمت السيدة هافل: أتخيل أحاديثك بيسر .

– قال الدكتور هافل: تكلمنا عن النساء. وجدتُ في السيد رفيقاً ومحدثاً من الطراز الرفيع، والصاحب المضيء في أيامي المظلمة".

التفتت السيدة هافل نحو الشاب: "ألم يسئمك؟".

كان الصحفي سعيداً لأن هافل سمّاه صاحبه المضيء، وأصبح حسده ممتزجاً بالامتنان: فالأصح أنه هو الذي أسأم الدكتور، وانتهى لأن يضيف بأنه كان على دراسة تامة بقلة خبرته وعدم أهميته وتفاهته.

– قالت الممثلة: "آه يا عزيزي، لا بدّ وأنك تباهيتَ!".

دافع الصحفي عن الطبيب "هذا ليس صحيحاً! أنت تقولين ذلك يا سيدتي العزيزة لأنك لا تعرفين ما هي المدينة الصغيرة وما هو الجحر الذي أقطنه.

– احتجت الممثلة: لكنها مدينة جميلة.

– بالنسبة لك أجل، لأنك لا تقيمين فيها إلا لبعض الوقت. أما أنا فأقطن فيها، وسأظل أقطن فيها. دوماً الدائرة نفسها من الناس الذين أعرفهم عن ظهر قلب، دوماً الناس أنفسهم الذين يفكرون جميعاً بالشيء نفسه، وكل ما يفكرون به ليس إلا حماقات وتفاهات. يجب أن أعيش على وفاق معهم، شئت ذلك أم أبيت، وأتكيف معهم شيئاً فشيئاً، دون أن أنتبه لذلك. كم هو مرعب! تصوري أن أصبح واحداً منهم! تصوري أني قد أرى العالم بعيونهم الحسيرة!".

أخذ الصحفي يتكلم بانفعال متزايد، وخُيِّلَ إلى الممثلة أنها التقطت في كلماته عاصفة الاحتجاج الأبدي للشباب، كانت مفتونة بذلك ومبلبلة منه فقالت: "لا، لا ينبغي أن تتكيف. لا ينبغي!"

– وافق الشاب قائلاً: لا ينبغي، نبّهني الدكتور البارحة. ينبغي بأي ثمن أن أخرج من الحلقة المفرغة لهذا الوسط. من الحلقة المفرغة لهذه الدناءة وهذه الضحالة. ينبغي أن أخرج منها، ردّد الشاب، أن أخرج منها.

– شرح هافل لزوجته: قلنا إن الذوق الريفي المبتذل يصنع مثلاً أعلى مزيفاً للجمال، وأن هذا المثال هو الجنسي بالأساس، لا، بل مضاد للجنسي، بينما يظل السحر الحقيقي الجنسي والمتفجر خفياً

على ذلك الذوق. يوجد حولنا نساء بمقدورهن تعليم أي رجل على أكثر المغامرات الجسدية المدوخة ولا أحد يراهن.

- أيّد الشاب: وهو كذلك.

- استطرد الطبيب: لا أحد يراهن، لأنهن يتطابقن مع المعايير؛ في الحقيقة، يتبدى السحر الجنسي بغرابته أكثر من انتظامه؛ بتعبيريته أكثر من معياره، بشذوذه أكثر من رشاقته المبتذلة.

- أيّد الشاب: أجل.

- قال هافل لزوجته: هل تعرفين فرنتيسكا؟

- قالت الممثلة: أجل.

- وتعلمين أن كثيراً من أصدقائي يهبون كل ما يملكون حتى يمضوا ليلة واحدة معها. أراهن على قطع رأسي أن أحداً لم يلاحظها في هذه المدينة. حسناً، أخبرني يا صديقي، أنت الذي تعرفها، هل لاحظت من قبل أن فرنتيسكا إمرأة غير عادية؟

- قال الشاب: لا، بصدق، لا! لم يخطر على بالي أبداً النظر إليها كإمرأة!

- قال الدكتور هافل: لا يدهشني ذلك. فأنت لم تكن تجد فيها الرقة الكافية ولا الثرثرة الكافية. وليس لديها نمش!

- قال الشاب بهيئة بائسة: وهو كذلك. أدركتُ البارحة إلى أي مدى أنا أحمق.

- استطرد هافل: لكن هل لاحظتَ أحياناً مشيتها؟ هل

لاحظتَ من قبل أن ساقيها تتكلمان بفصاحة حين تمشي؟ يا صديقي، لو كنت تسمع ما تقوله ساقاها، لاصطبغ وجهك بالأحمر، ومع ذلك أنت فاسق لعين كما أعرفك".

9

– قالت الممثلة لزوجها حين أصبحا وحيدين: "تحب كثيراً الاستهزاء بالساذجين.

– قال: تعرفين أن هذا بالنسبة لي علامة مزاج طيب. وأقسم لك أنها المرة الأولى التي يحصل لي فيها ذلك منذ وجودي هنا".

لم يكذب الدكتور هافل هذه المرة؛ فعندما دخلت الحافلة إلى المحطة في الصباح، وشاهد عبر زجاج النافذة زوجته الجالسة، ثم حين شاهدها تقف على باب الحافلة مبتسمة، شعر بنفسه سعيداً، وبما أن الأيام السابقة تركت فيه مخازن البهجة سليمة بكاملها، فقد عبّر عن فرحه طيلة النهار بطريقة طائشة قليلاً. تنزها سوية تحت القناطر وتلذذا بأقراص الحلوى، وذهبا إلى فرنتيسكا ليستمعا إلى تعليقاتها حول أحاديث ابنها الأخيرة، قاما بنزهة مع الصحفي، وقد ذكرناها في الفصل السابق، وسخرا من النزلاء المرضى الذين يقومون بنزهتهم الصحية في شوارع الحمة، وقد تيسّر له التأكد أنهم توقفوا للنظر إليها حين التفت إلى الوراء.

قال هافل: "لقد عرفوكِ. الناس هنا لا يدرون ما يفعلون لذلك يذهبون إلى السينما بولع".

– هل يزعجكَ ذلك؟ سألت الممثلة التي كانت تعدُّ الإعلان

الملازم لمهنتها بمثابة ذنب، لأنها مثل جميع أولئك الذين يعشقون الحب الحقيقي، كانت تتوق لحب هادئ وخفي.

– قال هافل: بالعكس "وضحك، ثم تسليا طويلاً بلعبة صبيانية، وهما يحاولان أن يحزرا المارة الذين سيتعرفون عليها في الشارع التالي. وكان الناس يلتفتون إلى الوراء، سادة عجائز وفلاحون وصبية، وأيضاً عدد من النساء الجميلات اللواتي كن يتعالجن في هذا الفصل.

ابتهج هافل، الذي عاش مهملاً على نحو مهين منذ بضعة أيام، من اهتمام المارة ورغب في أن تسلط عليه أيضاً أشعة الانتباه بقدر المستطاع؛ فطوّق خصر الممثلة، وهمس في أذنها بكل أنواع الغزل والفجور، فانشدت إليه بدورها، وأخذت تتطلع إلى وجهه بعينيها الفرحتين. أصبح هافل بتأثير الأنظار الموجهة إليه يشعر أنه يستعيد وجوده المرئي المفقود، وأن قسماته الغامضة غدت محسوسة وواضحة، وصار مزهواً من جديد بالفرح الذي يمدّه به جسده وخطواته وكل كيانه.

كانا يحاذيان هكذا الواجهات الزجاجية للشارع الرئيسي متحاضنين بحب، حين لمح الدكتور هافل في متجر لوازم الصيد المسدة الشقراء التي عاملته في الأمس بمنتهى الازدراء، كانت في الحانوت الفارغ، وتثرثر مع البائعة. قال فجأة لزوجته المندهشة "تعالي، إنك أروع مخلوقة أعرفها؛ أودُّ تقديم هدية لكِ" ثم أمسك يدها، وجذبها إلى المتجر.

سكتت المرأتان؛ وتأملت المسدة طويلاً الممثلة، ثم باختصار هافل، ثم من جديد الممثلة، ثم هافل الذي لاحظ ذلك بارتياح، لكن

دون أن يخصها بنظرة واحدة. استعرض بسرعة السلع المعروضة؛ أخذ يتفحص قرون الأيل ومحافظ الصيد والغدارات والمناظير والقصبات والكمامات.

سألت البائعة: "ماذا تريدان؟

– قال هافل: لحظة" ثم انتهى إلى اكتشاف صفارات تحت زجاج منضدة البائعة فأشار إليها بإصبعه. ناولته البائعة إحداها، فوضعها هافل بين شفتيه وصفّر، ثم تفحصها ثانية من كل الجهات وصفّر مرة أخرى بلطف. قال للبائعة" ممتاز"، ووضع أمامها الخمس كورونات المطلوبة. ناول الصفارة إلى زوجته.

– رأت الممثلة في هذه الهدية إحدى التصرفات الصبيانية التي تحبها لدى زوجها، وتهريجاً يستمد معناه من لغوه، فشكرته بنظرة حب. لكن هافل ارتأى أن ذلك ليس كافياً، وقال لها بصوت خافت: "أهكذا تشكرينني على هدية بمثل هذا الجمال؟ "فقبّلتْهُ الممثلة. تابعتهما المرأتان بعيونهما، وتعقبتاهما أيضاً بنظراتهما حين خرجا من المتجر.

بعد هذا تابعا من جديد نزهتهما في الشوارع والحديقة العامة، وقضما أقراص الحلوى، وصفّرا بالصافرة، وجلسا على مقعد وتراهنا، وهما يتسليان بالتحزر عن عدد المارة الذين كانوا على وشك الالتفات إلى الوراء. وحين دخلا في المساء إلى المطعم، كادا يصطدمان بالمرأة الشبيهة بحصان السباق. ألقت عليهما نظرة مندهشة، طويلة على الممثلة، ومختصرة على هافل، ثم من جديد على الممثلة، وحين نظرت ثانية إلى هافل حيّتْهُ رغماً عنها. حياها هافل بدوره، وسأل زوجته بصوت خافت

وهو ينحني على أذنها إن كانت تحبه. رمقته الممثلة بنظرة عاشـقة مديدة وداعبت وجنته.

جلسا بعد ذلك إلى طاولـة ، وتنـاولا وجبـة خفيفـة (لأن الممثلـة كانت تراعي حمية زوجها بدقة) ، وشربا النبيذ الأحمر (الوحيد الذي يحق للدكتور هافل شربه) ثـم اعـترت السيدة هـافل برهـة تـأثر. مـالت نحـو زوجها وأمسكت يده، وقالت له بأن هذا النهار هو من أجمـل النهـارات الـتي عرفتهـا؛ واعـترفت لـه بأنهـا شعرت بـالحزن الشـديد حـين غـادر للاستشفاء؛ اعتذرت أيضاً مرة أخرى لأنها كتبت لـه رسالة حمقـاء مـن إمرأة غيورة وشكرته لأنه تلفن لها وطلـب منهـا اللحـاق بـه؛ قـالت بأنـه سيسـعدها دائمـاً المجـيء لمرافقتـه حتـى لـو لم تـره إلا دقيقـة واحـدة؛ ثـم شرحـت بإسهاب أن الحياة مع هافل هي بالنسبة لها عذاب وشقاء في كل اللحظات، كما لو أن هافل علـى وشـك الفـرار منهـا دومـاً، لكـن لهـذا السبب بالذات، كان كل يوم بالنسبة لها فرحاً متجدداً، واستئنافاً جديـداً للحب، وهبة جديدة.

ثم تَوَجّها سوية إلى حجرة الدكتـور هـافل وبلـغ فـرح الممثلـة ذروته بسرعة.

10

بعد اليوم التالي؛ ذهب الدكتور هافل إلى جلسة المعالجة بالماء ووصـل، ثانيـة، متـأخراً، لأنـه لم يصـل أبـداً في الموعـد المحـدد حقـاً. واستقبلته الممسدة الشقراء نفسها، لكنها لم تبد لـه هـذه المرة وجهـاً عبوساً، ابتسمت له، ونادته *بالدكتور*، فاستنتج هافل مـن ذلـك أنهـا

ذهبت للاطلاع على بطاقته في مكتب المنشأة أو أنها استخبرت بشأنه . لاحظ هذا الاهتمام برضى وذهب ليخلع ملابسه خلف حاجز الحمام، وحين أخبرته المسدة أن حوض الحمام امتلأ، خرج مبرزاً سُرَّته بفخر، وتمدد في المغطس مبتهجاً.

أدارت المسدة الصنبور على لوحة القيادة، وسألت هافل إن كانت زوجته ما تزال معه. رد هافل بالنفي فسألته المسدة إن كان الناس سيشاهدونها عما قريب في فيلم جميل. ردّ هافل بالإيجاب، ورفعت المسدة ساقه اليمنى، ولأن الدفق كان يدغدغ باطن قدمه ابتسمت المسدة وقالت بأن الدكتور يبدو ذا جسد حساس جداً. ثم ظلا يثرثران، وعلّق هافل بأن الحياة مضجرة هنا. ابتسمت المسدة ابتسامة معبرة، وقالت بأن الدكتور يعرف كيف يتدبر أمره لكي لا يضجر. وحين انحنت إلى الأمام كي تركز الفوهة على صدره، أطرى الدكتور هافل نهديها اللذين شاهد جيداً الجزء الأعلى منهما في الوضعية التي ألفى نفسه فيها، فأجابت المسدة بأن الدكتور شاهد من قبل أجمل منهما حتماً.

استنتج هافل من هذه الأحاديث أن الإجازة القصيرة لزوجته قد غيرته تماماً في نظر هذه الفتاة اللطيفة ذات العضلات، وأنه اكتسب فجأة سحراً والأصح: أن جسده غدا بالنسبة لها فرصة للارتباط سراً بممثلة مشهورة، ولتصبح مثل امرأة ذائعة الصيت، تجذب إليها أنظار الجميع. أدرك هافل أن كل شيء مباح له في الحال، وأنه موعود بكل شيء ضمناً ومقدماً.

لكن حسبما يحدث في الحياة غالباً، حين نكون مسرورين نرفض – عن طيب خاطر وبعجرفة – الفرص التي تسنح لنا، حتى

نؤكد ذواتنا في امتلائنا المغتبط. كان يكفي أن تتخلى الفتاة الشقراء عن كبريائها المهين، وأن يصبح صوتها رقيقاً ونظرتها متواضعة لكي يفقد الدكتور هافل رغبته بها.

توجب عليه بعد ذلك التمدد على بطنه والاحتفاظ بذقنه خارج الماء واستمتع بالدفق الشديد يرشه من رأسه حتى قدميه. بدت هذه الوضعية له وضعية دينية للخشوع والشكر: راح يفكر في زوجته ومقدار جمالها ومقدار حبه لها ومقدار حبها له، وأنها كانت نجمته السعيدة التي تكسبه حظوة المغامرة والفتيات ذوات العضلات.

وعندما انتهى التدليك ونهض للخروج من المغطس، بدت له الممسدة ذات البشرة الدبقة بجمال في غاية الكمال وغاية اللذة، ونظرتها مذعنة بمنتهى الخضوع، وأن لديه رغبة بالانحناء في الاتجاه الذي يتوقع وجود زوجته فيه عن بعد. لأنه كان يخال أن جسد الممسدة واقف على اليد الضخمة للممثلة، وأن تلك اليد تناوله الجسد كرسالة حب وكقربان. وفكر أنه سيهين زوجته إذا ما رفض هذا القربان، ورفض هذه اللفتة الحنون. ابتسم للشابة المتعرقة وقال لها بأنه حجز سهرته لها، وأنه سينتظرها في فورش الساعة السابعة. وافقت الشابة، وتدثر هافل بمنشفة الحمام الكبيرة.

حين ارتدى ملابسه وسرّحَ شعره، تأكد أن مزاجه منشرح للغاية . كان يرغب بالثرثرة فتوقف عند فرنتيسكا، وقد جاءت هذه الزيارة في أوانها لأنها هي أيضاً كانت في حالة ممتازة. راحت تتكلم عن كل شيء ولا شيء، وتنتقل بين شتى الأحاديث المتهافتة، لكنها تعود دوماً إلى الموضوع الذي عالجاه عند لقائهما الأخير: عمرها؛ فقد حاولت بعبارات

مبهمة الإشارة إلى أنه ينبغي عدم الرضوخ لعدد السنين، وأن عدد السنين لا يشكل عائقاً دوماً، وأنه إحساس في غاية الروعة حين يكتشف المرء فجأة أنه يستطيع التكلم بهدوء كَبِدٍ مع أناس أكثر شباباً. قالت فجأة: "وليس الأطفال كل شيء، أنت تعلم مقدار حبي لأطفالي، لكن ثمة أمور أخرى أيضاً في الحياة".

لم تخرج أفكار فرنتيسكا للحظة عن نطاق التجريد الغامض، وبالنسبة لأي شخص غير خبير، لا يمكن أن يكون ذلك سوى ثرثرة عابرة، لكن هافل كان خبيراً، واكتشف المضمون الذي يتوارى وراء الثرثرة. استنتج من ذلك أن سعادته الشخصية ليست إلا حلقة في سلسلة طويلة من السعادات وقد تضاعف ابتهاجه لأن له قلباً نبيلاً.

11

أجل، كان الدكتور هافل يرى الصواب: ذهب الصحفي إلى الدكتورة في اليوم نفسه الذي مدحها فيه معلمه. أظهر جرأة مفاجئة بعد بضع عبارات، وقال لها بأنه معجب بها، ويود رؤيتها. أجابته الدكتورة بصوت متهدج أنها أكبر منه سناً ولديها أطفال. شعر الصحفي من هذه الإجابة بازدياد ثقته في نفسه، و لم يجد أية صعوبة في العثور على الرد المناسب، فأكد أن الدكتورة تتمتع بجمال خفي أثمن من الجمال المبتذل؛ قَرَّظَ مشيتها وقال إن ساقيها تتكلمان حين تمشي.

وبعد يومين، حين كان الدكتور هافل يصل متمهلاً إلى فورش، ويلمح من بعيد الفتاة الشقراء ذات العضلات، كان الصحفي يتمشى

بلهفة في ملحقه الضيق؛ وهو شبه واثق من نجاحه، إلا أنه يخشى احتمال الخطأ أو الصدفة التي قد تحجبه عنها؛ كان يفتح بين الفينة والأخرى الباب لينظر نحو الأسفل إلى قفص الدرج، شاهدها أخيراً.

كاد الاهتمام الذي ارتدت به الدكتورة ملابسها وتجملت ينسي مظهر هذه المرأة المألوف بالبنطال الأبيض والقميص الأبيض؛ أخذ الشاب يقول لنفسه في غمرة اضطرابه إن السحر الجنسي لفرنتيسكا الذي لم يكن حتى ذلك الحين إلا هاجساً، أصبح الآن حاضراً أمامه، ومفضوحاً على نحو فاحش تقريباً، وشعر أن الخجل الذي يولد الاحترام يستولي عليه؛ وكي يقهره، أمسك الدكتورة من ذراعيها حتى قبل أن يغلق الباب وبدأ يقبلها بشدة. جفلت من هذه المفاجأة، ورجته أن يدعها تجلس. وافق على ذلك، لكنه جلس في الحال عند قدميها وقبّل جوربيها فوق الركبتين. وضعت يدها في شعره وحاولت إبعاده برفق.

لنرهف السمع إلى ما كانت تقوله له: بادئ ذي بدء، ردّدت عدة مرات: "يجب أن تكون عاقلاً، يجب أن تكون عاقلاً، عدني أن تكون عاقلاً" عندما قال لها الشاب: "أجل، أجل، سأكون عاقلاً" وهو يقرب شفتيه إلى أعلى فوق النايلون الخشن، قالت: "لا، لا، ليس هذا، لا، لا"، وحين وضعهما إلى أعلى أيضاً، بدأت فجأة ترفع الكلفة معه وأكّدت: "أوه، أنت مجنون، أوه أنت مجنون!".

هذا التأكيد قرّر كل شيء. لم يصادف الشاب بعد أية مقاومة. كان مذهولاً؛ مذهولاً من نفسه، ومن سرعة نجاحه، مذهولاً من عبقرية هافل التي أصبحت ترافقه وتتغلغل فيه، مذهولاً من عري المرأة الراقدة تحته في احتضان عاشق. كان يريد

أن يصير معلماً، كان يريد أن يصبح ماهراً، كان يريد البرهنة على شبقه ونهمه. نهض بخفة كي يتفحص بنظرة شرهة جسد الدكتورة الممدّد وتمتم "إنك جميلة، إنك بهية...".

أخفت الدكتورة بطنها بيديها، وقالت: "أمنعكَ من السخرية مني.

- ماذا تقصدين بهذا؟! كأنني كنت أسخر منك! أنت بهية!

- قالت وهي تضمه إليها حتى لا يراها: لا تنظر إلي. لدي طفلان. هل تعلم ذلك؟

- قال الشاب دون أن يفهم: طفلان؟

- هذا واضح، لا أريدك أن تنظر إلي".

هذه الملاحظة أخمدت نوعاً ما اندفاعة الشاب الأولية، ولم يهتد إلى مستوى الإثارة المناسب إلا بجهد؛ ولكي يبلغه على نحو أفضل، حاول تغذية النشوة الهاربة بالكلمات، وهمس في أذن الدكتورة بأنه جميل أن تكون معه هنا، عارية، عارية تماماً، عارية تماماً.

راحت الدكتورة تقول له: "أنت لطيف، أنت في غاية اللطف".

تكلم الشاب ثانية عن عري الدكتورة وسألها إن كان يثيرها، هي أيضاً، أن تكون معه هنا عارية.

قالت الدكتورة: "إنك طفل. طبعاً يثيرني ذلك"، لكنها أضافت بعد هنيهة صمت أن كثيراً من الأطباء شاهدوها من قبل عارية حتى أصبح ذلك تافهاً. قالت: "إنهم أطباء أكثر مما هم

عاشقون" ودون أن توقف حركاتهما العاشقة راحت تتكلم عن ولادتها العسيرة: "ذلك يستحق العناء"، وقالت كنتيجة: "لدي طفلان رائعان. رائعان، رائعان، رائعان!".

بدأت الإثارة المكتسبة بعشقة تبارح الصحفي مرة أخرى، وشعر فجأة أنه في المقهى، ويثرثر مع الدكتورة أمام قدح شاي؛ إنه ناقم عليها؛ أصبحت حركاتها غاضبة، فحاول استمالتها بعبارات أكثر حسيّة: "حين ذهبتُ لرؤيتك آخر مرة، هل كنتِ تعرفين بأننا سنتضاجع؟

– وأنت؟

– قال الصحفي: كنتُ أرغب بذلك، كنت **أرغب** بذلك كثيراً!" وحمّل كلمة **أرغب** شغفاً بليغاً.

همست له الدكتورة: "أنت تشبه ابني، هو أيضاً يود الحصول على كل شيء، أسأله دوماً: ألا ترغب بساعة مع فوارة ماء؟".

هكذا كانا يتضاجعان، الدكتورة تتكلم وهي مفتونة بحديثهما.

حين جلسا بعد ذلك على الأريكة جنباً إلى جنب، عاريين ومتعبين، داعبت الدكتورة شعر الصحفي وقالت له: "لديك خصلة مثله.

– من هو؟

– ابني.

– علّق الصحفي بلوم خجل: تتكلمين طيلة الوقت عن ابنك.

– قالت الدكتورة بفخر: كما تعلم إنه أثير أمه، أثير أمه".

ثم نهضت وارتدت ملابسها. وفجأة راودها في حجرة الشاب

الصغير إحساس بأنها شابة، فتاة في ريعان الصبا، وشعرت بنفسها معافاة على نحو ممتع. حين غادرت، ضمّت الصحفي إلى صدرها، كانت عيناها طافحتين بالامتنان.

12

بدأ نهار جميل بالنسبة للدكتور هافل بعد ليلة جميلة. تبادل أثناء الإفطار بضع كلمات واعدة مع المرأة الشبيهة بفرس السباق، ولما عاد من علاجه في الساعة العاشرة كانت تنتظره في حجرته رسالة حب من زوجته. ذهب بعد ذلك للنزهة تحت القناطر في موكب المرضى، كان يرفع إلى شفتيه طاسة مليئة بماء النبع ويُشرِق بالغبطة. غدت عيون النساء اللواتي كن يعبرن بجانبه قبل بضعة أيام دون أن يلاحظنه تحدق فيه، راح ينحني بخفة لتحيتهن. حين لمح الصحفي، اقترب منه لمخاطبته بمرح: "مررتُ بعيادة الدكتورة منذ قليل وبحسب بعض العلامات التي لا يمكن أن تفوت عالم نفس جيد، لدي إحساس بأنك نجحت!".

لم تكن لدى الشاب رغبة أعزّ من الإفضاء بما لديه لمعلمه، لكن الطريقة التي انقضت بها سهرة الأمس جعلته يتردّد قليلاً، فهو ليس واثقاً تماماً من أن تلك السهرة كانت رائعة كما يجب ، ولا يعلم إن كان تقرير دقيق وأمين سيرفع من شأنه في نظر الدكتور هافل أم سيحط منه، وراح يتساءل عما يجب البوح به أو إخفاؤه عن الطبيب.

لكنه حين رأى وجه هافل مشرقاً بالوقاحة والمرح، لم يتمالك نفسه من إجابته بالنبرة نفسها المرحة والوقحة، وقرّظَ بعبارات حماسية المرأة التي نصحه بها الدكتور هافل. قال: إنها فتنته منذ أن بدأ ينظر إليها

بعينين مختلفتين عن عيون سكان الريف، وحكى أنها وافقت بلطف على المجيء إلى منزله، وأنها منحت نفسها بسرعة فائقة.

حين بدأ الدكتور هافل يطرح عليه الأسئلة المحددة والمفصلة، لكي يحلّل الأمر بكل دقائقه، اضطرالشاب في إجاباته طوعاً أو كرهاً على مقاربة الحقيقة أكثر فأكثر، وانتهى إلى الاعتراف بأنه رغم رضاه التام من كل الجوانب، لكن المحادثة التي أجرتها الدكتورة معه أثناء ممارسة الحب أوقعته بشيء من الارتباك.

أبدى الدكتور هافل اهتماماً فائقاً، وحين كرّر الصحفي على مسامعه المحادثة بالتفصيل، تحت إلحاحاته، دعم روايته بعلامات تعجب حماسية "ممتاز! تمام!" "آه، يا لقلب الأم الأبدي!" و:"أحسدك يا صديقي!".

في هذه اللحظة، جاءت المرأة الشبيهة بفرس السباق لتقف أمام الرجلين. انحنى الدكتور هافل فصافحته المرأة الطويلة. قالت: "اعذرني، إنني متأخرة قليلاً!

- قال الدكتور هافل: لا أهمية لذلك. لدي حديث هام جداً مع صديقي. أرجوك أن تسمحي لي بلحظة، أودُّ إنهاء هذه المحادثة".

ودون أن يترك يد المرأة الطويلة، التفت إلى الصحفي: "ما قلته لي للتو يفوق كل آمالي. لأنه يجب أن تفهم أن الملذات الجسدية المهملة في صمتها هي ذات رتابة كئيبة، إمرأة تقلد الأخرى في المتعة وجميعها تنسى في جميعها. ولكننا إذا كنا نندفع في متع الحب فذلك لكي نتذكرها وكي تزين نقاطها المضيئة شريط شبابنا المشع في شيخوختنا، كي تحافظ على

ذاكرتنا في اتقاد أبدي! واعلم يا صديقي أن كلمة وحيدة واضحة في هذه الحالة الأتفه من كل الحالات، يمكن أن تضيئها بنور يجعلها لا تنسى. يقول الناس عني بأنني هاوي جمع النساء. وفي الحقيقة إنني هاوي جمع كلمات على الأخص. صدقني بأنك لن تنسى أبداً سهرة الأمس، وستكون سعيداً بها طيلة حياتك!".

ثم أومأ برأسه إلى الشاب، وابتعد ببطء على امتداد القناطر وهو يمسك يد المرأة الطويلة الشبيهة بالفرس.

* * *

المحاورة

الفصل الأول

قاعة المناوبة

ضمت قاعة المناوبة (في قسم ما من مشفى ما في مدينة ما) خمس شخصيات، فَحَدَلَّتْ تصرفاتهم ونقاشاتهم في حكاية ساحرة، وبالأحرى مرحة.

يوجد في القاعة الدكتور هافل والممرضة إليزابيت (كلاهما يمارسان وظيفتهما الليلية) ويوجد طبيبان آخران (قادتهما إلى هنا حجة متهافتة تقريباً كي يثرثرا ويشربا بضع زجاجات سوية): المدير بجمجمته الصلعاء ودكتورة جميلة في حوالي الثلاثين من عمرها تعمل في قسم آخر ويعرف كل المشفى عنها أنها تنام مع المدير.

(المدير متزوج طبعاً وينطق الآن بعبارته الأثيرة، التي تؤكد في آن معاً حس الفكاهة لديه ومقاصده: "زملائي الأعزاء، أكبر تعاسة بالنسبة للرجل هي زواج سعيد. فلا أمل بالطلاق").

بالإضافة إلى هذه الشخصيات الأربع توجد شخصية خامسة، ولكنها – والحق يقال – ليست هنا لأنهم أرسلوها لإحضار زجاجة جديدة باعتبارها الأصغر سناً. وثمة نافذة، وهي مهمة لأنها مفتوحة على ظلام الخارج، وتترك المجال باستمرار لدخول القمر مع الصيف

الدافئ والمعطر إلى الحجرة. وأخيراً، توجد البهجة التي تكشفها الثرثرة اللطيفة عن كل شيء، لا سيما عن المدير الذي يصغي إلى هذياناته الشخصية بأذنين عاشقتين.

بعد ذلك بقليل (وهي اللحظة التي تبدأ فيها قصتنا) يسود توتر ما: شربت إليزابيت أكثر مما يليق بممرضة تمارس عملها، وفوق ذلك تظهر حيال الدكتور هافل غنجاً مغرياً يثيره ويؤدي إلى تنبيه حاد من جانبه.

تنبيه الدكتور هافل:

"لا أفهمك يا عزيزتي إليزابيت. تتخبطين كل الأيام في جراح متقيحة، تحقنين بالإبر الأرداف المتصلبة للعجائز، وتعطين الحقن الشرجية وتفرغين الأحواض. منحك القدر فرصة تحسدين عليها لفهم الطبيعة الشهوانية للرجل في كل بطلانها الميتافيزيقي. لكن حيويتك ترفض الإذعان للصواب. لا شيء يستطيع أن يزعزع إرادتك العنيدة من أن تكون جسداً وجسداً لا غير. يتحدى نهداك الرجال على مسافة خمسة أمتار! أشعر بالنشوة لرؤيتك تمشين وحسب، بسبب الحلزونات الدائمة التي يرسمها ردفك الذي لا يتعب. ابتعدي قليلاً بحق الشيطان! نهداك كليّا الوجود كالقدر! إنك الآن متأخرة عشر دقائق عن الحقن!".

الدكتور هافل كالموت يستحوذ على كل شيء:

سأل المدير حين خرجت إليزابيت من قاعة المناوبة (مهانة بوضوح) وقد حُكِمَ عليها بحقن ردفين عجوزين: "من فضلك يا هافل، هل بوسعك أن تشرح لي لماذا تطرد بمنتهى الإصرار تلك البائسة إليزابيت؟".

شرب الدكتور هافل جرعة وأجاب: "أيها المدير، ينبغي ألا تعاتبني. فأنا لا أطردها لأنها قبيحة أو لأنها لم تعد شابة. صدقني! حصلتُ سابقاً على نساء أقبح منها وأكبر سناً بكثير.

– أجل، أفهمك، أفهمك: إنك كالموت، تستحوذ على كل شيء. ولكن ما دمت تستحوذ على كل شيء، لماذا لا تستحوذ على إليزابيت؟

– قال هافل: ذلك بلا ريب لأنها تفصح عن رغبتها بطريقة معبرة فتبدو وكأنها أمر. أنت تقول إنني كالموت حيال النساء لكن الموت لا يحب أن يصدر إليه أحد الأوامر".

النجاح الأعظم للمدير:

أجاب المدير: "أعتقد أنني أفهمك. قبل بضع سنوات من الآن، تعرفتُ إلى فتاة كانت تنام مع كل الرجال، ولأنها كانت جميلة، قررت الحصول عليها. تصور، لم ترغب بي! كانت تنام مع زملائي ومع السائق والطباخ وحمال الجثث، وكنت الوحيد الذي لا تنام معه. هل بوسعك تخيل هذا؟.

– علّقت الدكتورة: طبعاً.

– استطرد المدير الذي اعتاد أن يخاطب عشيقته باحترام أمام الناس قائلاً بتبرم: إذا أردت معرفة ذلك، في تلك الفترة، لم يكن قد مضى على نيلي الشهادة إلا بضع سنوات فقط وقد حققت الكثير من النجاحات. كنت مقتنعاً أن كل إمرأة سهلة المنال، وقد أفلحت في البرهنة على ذلك مع نساء منيعات جداً. وكما ترين، أخفقت مع تلك الفتاة رغم أنها سهلة جداً.

– قال الدكتور هافل: بحسب معرفتي بك، لديك بالتأكيد نظرية لتفسير ذلك.

– ردّ المدير: أجل. ليست الشهوة هي الرغبة بالجسد وحسب، إنما هي في مقياس مماثل، الرغبة في الشرف. يصبح الرفيق الذي حصلنا عليه والذي يحرص علينا ويحبنا مرآتنا، إنه مقياس أهميتنا وقيمتنا. من وجهة النظر تلك، لم تكن عاهرتي الصغيرة مهمة سهلة. عندما تنام إمرأة مع كل الرجال تكفّ عن الإيمان بأن أمراً تافهاً مثل ممارسة الحب يمكن أيضاً أن يحظى بأهمية ما. تسعى إذاً إلى الشرف الشهواني الحقيقي من الجهة المقابلة. إن رجلاً تمناها، لكنها ترفضه، هو وحده الذي كان يمكن أن يقدم لعاهرتي الصغيرة مقياس قيمتها. وبما أنها أرادت أن تصبح في نظره الأفضل والأجمل، فقد أبدت لأبعد حد قسوتها وتشددها حين ترتب عليها اختيار ذاك الرجل الأوحد الذي ستشرفه برفضها. اختارتني في النهاية وأدرَكْتُ أن ذلك كان شرفاً استثنائياً، و لم أزل حتى اليوم أعتبره نجاحي الغرامي الأعظم.

– قالت الدكتورة: لديك موهبة مدهشة لتحويل الماء إلى خمر.

– قال المدير: أنت مهانة لأنك لست التي أعدّها نجاحي الأعظم؟ يجب أن تفهميني. مع أنك إمرأة فاضلة، فإنني، رغم ذلك، لستُ بالنسبة لكِ (وليس بوسعك أن تعلمي إلى أي مدى يؤسفني هذا) الأول ولا الأخير، بينما كنت كذلك بالنسبة لتلك العاهرة الصغيرة. صدقيني، أنها لم تنسني أبداً، و لم تزل تتذكر بحنين حتى اليوم أنها رفضتني. من جهة أخرى لم أروِ هذه الحكاية إلا لإظهار التشابه مع موقف هافل إزاء إليزابيت".

تقريظ الحرية:

قال هافل: "يا إلهي أيها المدير، أنت لن تذهب رغم كل شيء إلى حد المطالبة بأن أبحث في إليزابيت عن معيار قيمتي الإنسانية.

– قالت الدكتورة متهكمة: طبعاً لا! لقد شرحتَ لنا ذلك من قبل. فموقف إليزابيت المثير يبدو لك كأنه أمر، وأنتَ تريد الاحتفاظ بوهم أنك تختار بنفسك النساء اللواتي تنام معهن.

– قال هافل متأملاً: كما تعلمين، وبما أننا نتكلم بصراحة، ليس الأمر على هذا النحو تماماً. في الحقيقة، أردتُ فقط أن أكون خفيف الدم حين قلت بأن ما يزعجني هو موقف إليزابيت المثير. بصراحة، حظيت بنساء يفقنها إثارة بكثير وكان يلائمني تماماً أنهن مثيرات؛ لأن الأحداث لم تكن تطول.

– هتف المدير: إذاً، لماذا بحق الشيطان لم تحصل على إليزابيت؟

– ليس سؤالك أيها المدير عابثاً كما ظننته في البداية، لأنني أرى أنه من العسير جداً الإجابة عنه. وحتى أكون صريحاً لا أدري لأي سبب لم أحصل على إليزابيت. حصلت على نساء أقبح منها وأكبر سناً وأكثر إثارة. ويمكن للمرء أن يستنتج من ذلك أنني سأنتهي حتماً إلى الحصول عليها. هذا ما كان سيفكر به جميع الإحصائيين. وكانت كل آلات الأتمتة ستستنتج رأياً في هذا المعنى. وانتبه، لذلك بلا شك لم أحصل عليها. أردت بلا شك أن أقول لا للضرورة، وأن أعرقل مبدأ السببية، وأن أفسد قابلية التوقع الكئيبة للسيرورة الشاملة بواسطة نزعة حرية الاختيار.

- هتف المدير: لكن لماذا اخترت إليزابيت لأجل هذه الغاية؟

- بالضبط لأنه لا يوجد سبب. ولو كان يوجد سبب، لاستطاع المرء سلفاً اكتشافه وتحديد سلوكي مسبقاً. وفي هذا الغياب للسبب بالضبط، يوجد ذلك الجزء من الحرية الذي يلائمنا والذي علينا أن نتجه نحوه بلا كلل حتى يظل، في هذا العالم من القوانين القاسية، شيء من الفوضى الإنسانية. زملائي الأعزاء، لتحيا الحرية!" قال هافل ورفع كأسه بحزن لكي يشرب النخب.

مدى المسؤولية:

في هذه اللحظة، ظهرت في الحجرة زجاجة جديدة، فتركز عليها كل انتباه الأطباء الحاضرين في الحال. كان فليسشمان، الشاب الجميل المتعثر، يقف في الباب وبيده زجاجة، وهو طالب طب يتمرن في القسم. وضع (بهدوء) الزجاجة على الطاولة، بحث (طويلاً) عن مفتاح السدادات، بعد ذلك وتد (ببطء) المفتاح في السدادة وغرزه فيها (متأملاً) حتى انتهى إلى استخراجها (حالماً). الأقواس السابقة مخصصة لإظهار بلادة فليسشمان، تلك البلادة التي كانت تثبت، بدلاً من البلاهة، الإعجاب اللامبالي الذي ينظر به طالب الطب بتأن إلى حقيقة وجوده، مهملاً التفاصيل التافهة للعالم الخارجي.

قال الدكتور هافل: "ليس لهذا أي معنى. فلستُ أنا الذي أرفض إليزابيت، بل هي التي لا تريدني. وا أسفاه! إنها مولهة بفليسشمان.

- بي؟" رفع فليسشمان رأسه، ثم ذهب بخطوات واسعة لإعادة مفتاح السدادات إلى مكانه، وعاد بعد ذلك إلى قرب الطاولة الواطئة وصبَّ النبيذ في الكؤوس.

"قال المدير موافقاً هافل على رأيه: إنك طيب، فالجميع يعرف ذلك إلا أنت، ومنذ أن وطئت قدماك القسم، أصبحتَ لا تعاشر. ولم تزل على هذه الحال منذ شهرين".

نظر فليسشمان (طويلاً) إلى المدير وقال: "صدقاً لا أعرف شيئاً عن ذلك" وأضاف : "على أي حال، هذا لا يهمني.

– قال هافل متظاهراً بصرامة عنيفة: وكل أحاديثك النبيلة؟ وكل استنتاجاتك حول احترام المرأة؟ أنت تولم إليزابيت ولا يهملك هذا؟

– قال فليسشمان: أشعر بالشفقة حيال النساء، ولا يمكنني أبداً إيذاءهن عمداً. لكن ما أقوم به عن غير عمد لا يهمني لأنه لا يسعني شيء حياله وبالتالي لست مسؤولاً عنه."

عادت إليزابيت بعد ذلك. لا شك أنها قررت أن أفضل ما تقوم به هو نسيان الإهانة والتصرف كأن شيئاً لم يحدث، حتى إنها راحت تتصرف بتكلف غريب. قدّم لها المدير كرسياً وملأ كأسها. "اشربي يا إليزابيت! وانسي كل الهموم!

– أجابت إليزابيت بابتسامة عريضة: بالتأكيد" وأفرغتْ كأسها.

وخاطب المدير فليسشمان من جديد: "لو أن المرء ليس مسؤولاً إلا عن الأمور التي يعيها، لكانت الحماقات مبرأة سلفاً عن كل إثم. لكن الإنسان ملزم بالمعرفة يا عزيزي فليسشمان. الإنسان مسؤول عن جهله. الجهل خطيئة. لذلك لا يمكن لشيء أن يبرئك، وأؤكد أنك كنت تتصرف كشخص فظ مع النساء حتى لو أنكرت ذلك".

تقريظ الحب الأفلاطوني:

عاود هافل هجومه ضد فليسشمان فقال مذكّراً إياه بالغزل العابث الذي كان يوجّهه لإحدى الفتيات:

"هل حصلتَ أخيراً للآنسة كلارا على الشقة التي وعدتها بها؟" (كلارا فتاة معروفة لهم جميعاً).

ليس بعد، لكنني أهتم بذلك.

– قاطعت الدكتورة متخذة موقف الدفاع عن فليسشمان: سألفت انتباهك إلى أن فليسشمان مهذب مع النساء. لا يجلب لهن المتاعب.

– كرر طالب الطب: لا يمكنني أن أتحمل شخصاً يتعامل بفظاظة مع النساء، لأنني أشعر بالشفقة عليهن.

– قالت إليزابيت لفليسشمان: على كل حال، كلارا تجعلك تدفع الثمن غالياً" وقهقهت بضحكة غير لائقة، فألفى المدير نفسه مضطراً لاستئناف الكلام:

"غالياً أو رخيصاً، هذا أقل أهمية بكثير مما تظنين يا إليزابيت. وكما يعرف الجميع، كان أبيلارد مخصياً، ولم يمنعه هذا عن البقاء، هو واللويز، عشيقين وفيين، وحبهما خالد. عاشت جورج ساند طيلة سبع سنوات مع فريدريك شوبان، طاهرة كعذراء، ولم يزل الناس يتكلمون عن حبهما! لا أريد في رفقة بمثل هذه الرفعة، التذكير بحالة العاهرة الصغيرة التي منحتني أعظم شرف يمكن لامرأة أن تمنحه لرجل، وذلك برفضها لي. لاحظي ذلك جيداً يا عزيزتي إليزابيت، توجد بين الحب وما تفكرين به دائماً صلات أكثر هشاشة مما تتصورين. تأكدي أن كلارا

تحب فليسشمان. إنها لطيفة معه، لكنها تتمنع عنه. يبدو هذا لك غير منطقي، لكن الحب هو بالضبط ما ليس منطقياً.

– قالت إليزابيت ضاحكة من جديد ضحكة غير لائقة: لكن ماذا يوجد في هذا غير منطقي؟ كلارا بحاجة إلى شقة، ولذلك فهي لطيفة مع فليسشمان. لكنها لا ترغب بالنوم معه، لأن لديها بالتأكيد شخص آخر تنام معه. لكن ليس بوسع ذلك الشخص الآخر تزويدها بشقة".

في تلك اللحظة، رفع فليسشمان رأسه وقال: "إنك تزعجينني. كأننا زمرة مراهقين. لعلها تتردد بدافع الحياء؟ ألم يخطر هذا على بالك؟ أو لعلها تعاني من مرض تخفيه عني؟ جرح يشوهها؟ يوجد نساء يعتريهن حياء مخيف.تلك الأمور فقط هي التي لا تفهمينها على ما يرام يا إليزابيت.

– قال المدير مقدماً العون لفليسشمان: أو أن قلق العشق حَجَّرَ كلارا أمام فليسشمان إلى درجة العجز عن مضاجعته. ألا يسعك يا إليزابيت أن تتصوري أنه بمقدورك أن تحبي شخصاً حباً يستحيل عليك معه مضاجعته؟

أكدت إليزابيت أن لا.

الإشارة:

يمكننا الآن أن نتوقف لبرهة عن متابعة المحادثة (المغذاة باستمرار بالأخبار الهاذرة) حتى نوضح أن فليسشمان يبذل ما بوسعه للنظر في عيني الدكتورة ،منذ بداية الأمسية، لأنها أعجبته على نحو مذهل مذ أن شاهدها لأول مرة (وقد مضى على هذا شهر). كان

جلال سنواتها الثلاثين يبهره. لم يكن قد شاهدها حتى الآن إلا على نحو عابر، وهذه الأمسية هي الفرصة الأولى التي أتاحت له لقاءها لبعض الوقت في الحجرة نفسها. شعر أنها تستجيب من حين لآخر لغمزاته، فتأثر من ذلك.

إذاً، بعد تبادل النظرات، نهضت الدكتورة فجأة، ثم اقتربت من النافذة وقالت: "ما أجمل الجو في الخارج. هذا البدر..." ومن جديد استقرت نظرتها عفوياً على فليسشمان.

فهم فليسشمان الذي كان ذكياً في مثل هذه الحالات أن هذه العبارة هي إشارة، وإشارة موجهة له. وفي تلك اللحظة بالذات، شعر أن موجة تثور في صدره. وفي الحقيقة، كان صدره آلة حساسة جديرة بورشة ستراديفار – يوس(*). وقد اتفق له أن شعر من حين لآخر، بهذا الإحساس المثير، وفي كل مرة يراوده يقين بأن الموجة في صدره تحمل حتمية منذرة بقدوم أمر عظيم وخارق قد يتجاوز أحلامه.

هذه المرة، أذهلته الموجة وكذلك أدهشته (فقد أفلتت زاوية خفية من دماغه من الذهول): كيف أمكن لرغبته أن تحظى بمثل هذه القوة، وأن يهرع الواقع بانقياد لنداء رغبته مفسحاً المجال لتحقيقها؟ ودون أن يكف عن الاندهاش من قدرته، أخذ يترقب اللحظة التي سيصبح فيها النقاش أكثر حدة والتي سيفر فيها من انتباه الغرماء. وما إن ارتأى أن تلك اللحظة حانت حتى اختفى من القاعة.

(*) ستراد يفاريوس: مخترع كمان.

الشاب الوسيم المعقود الذراعين:

يشغل القسم الذي تجري فيه هذه المحاورة المرتجلة الطابق الأرضي من جناح جميل مبني (بالقرب من أجنحة أخرى) في حديقة المشفى الفسيحة. وإلى تلك الحديقة دلف فليسشمان لتوه. استند إلى جذع شجرة دلب وأشعل سيكارة، وتأمل السماء: كان الوقت في عز الصيف، والهواء يعبق برائحة العطور، والقمر الدائري معلقاً في السماء السوداء.

راح يرغم نفسه على تخيل الشخص الذي سيتبعه عما قليل. ستنتظر الدكتورة، التي أشارت له للتو بالخروج، حتى يستغرق حبيبها الأصلع في المحادثة أكثر من استغراقه في الشك. ثم ستعمد باحتشام إلى الإفصاح عن حاجة صغيرة خاصة تضطرها إلى التغيب لبرهة.

وما الذي سيحدث بعد ذلك؟ فَضَّل ألا يتخيل شيئاً بعد ذلك. بدأت الموجة في صدره تنذر بمغامرة وكان هذا يكفيه. صار واثقاً من حظه ومن نجمة حبه ومن الدكتورة. استسلم، وهو يعلل نفسه بالاطمئنان (اطمئنان لم يزل حائراً قليلاً)، لسلبية ممتعة، لأنه شاهد نفسه دوماً بملامح الرجل المغري والمرغوب والمحبوب، وكان يروق له انتظار المغامرات بذراعين معقودين (بلباقة). كان واثقاً أن الذراعين المعقودين يستثيران ويفتنان النساء والقدر.

من المهم بالتأكيد في هذه المناسبة ملاحظة أنه غالباً ما اتفق لفليسشمان، إن لم يكن دائماً، أن رأى نفسه مصحوباً بقرين دوماً حتى إن وحدته كانت تصبح مسلية تماماً. في ذلك المساء على سبيل المثال، لم يكن وحسب مستنداً إلى شجرة دلب ويدخن، إنما راح يراقب في الوقت نفسه بتلذذ ذاك الرجل (الوسيم والفتي) المستند إلى شجرة دلب، ويدخن بلا مبالاة. استمتع طويلاً بهذا المشهد وانتهى إلى سماع خطوات رشيقة تتجه

صوبه من الجناح. تعمَّد ألا يلتفت. سحب نفساً من سيكارته. ثم نفث الدخان، وحدّق عينيه في السماء. عندما أصبحت الخطوات قريبة جداً، قال بصوت رقيق ومخادع: "كنت أعرف أنك ستأتين"(*).

التبول:

أجابه المدير: "لم يكن شاقاً اكتشاف هذا. أفضل التبول في الطبيعة أكثر من التبول في المباني الحديثة الكريهة. هنا، عما قليل، سيربطني بأعجوبة خيط دقيق مذهب مع التربة ومع العشب والأرض. لأنني تراب يا فليسشمان، وسأعود إلى تراب خلال برهة، جزئياً على الأقل. التبول في الطبيعة هو طقس نعد به الأرض بالعودة إليها ذات يوم كلياً".

ظلّ فليسشمان صامتاً فسأله المدير: "وأنت؟ جئت كي تنظر إلى القمر؟". أصرَّ فليسشمان على صمته، فأضاف المدير: "أنت غريب الأطوار يا فليسشمان، لذلك أحبك كثيراً". فَسَّرَ فليسشمان كلمات المدير على أنها سخرية، وقال بنبرة أرادها أن تكون جافة: "دعني وشأني مع القمر. أنا أيضاً جئتُ إلى هنا حتى أتبول.

– قال المدير متأثراً: يا صغيري فليسشمان: أعتبر هذا دليلاً استثنائياً على حبك لرئيسك الكهل".

واستقر كلاهما تحت شجرة الدلب حتى ينجزا عملية التبول التي ظل المدير يشبهها بالطقس، بحماسة لا تكل وبصورة متجددة على الدوام.

* * *

(*) قال هذه العبارة بصيغة الاحترام، أي مخاطبة المفرد بصيغة الجمع، وهي صيغة لا تحدد جنس المخاطب أي تصلح للمذكر والمؤنث في آن معاً. لذلك فهم المدير أن الكلام موجه له في حين أن فليسشمان يوجه كلامه للدكتورة.

الفصل الثاني

الشاب الوسيم الساخر:

أثناء عودتهما عبر الممر الطويل، كان المدير يحتضن كتفي طالب الطب الذي أصبح واثقاً من أن هذا الأصلع الغيور كشف إشارة الدكتورة وأنه كان يسخر منه بمناجاته الوديـة! لم يكن بوسعه أن يزيح طبعاً يد المدير عن كتفه، و لم يزده ذلك إلا غيظاً. ثمة أمر وحيد يواسيه: لقد كان، وهو يغلي من الغضب، *يشاهد نفسه* في هذا الغضب، كان يشاهد تعبير وجهه نفسه. وشعر بالسرور من هذا الشاب الحانق الذي يعود إلى قاعة المناوبة، والذي، على نحو مباغت للجميع، سوف يبدو فجأة بشكل مختلف تماماً: ساخراً ولاذعاً وشيطانياً.

حين دخلا إلى قاعة المناوبة، وجدا إليزابيت تقف وسط الحجرة، وتهز وركيها بشكل مخيف، مترنمة بأنغام لحن. كان الدكتور هافل يغض بصره، فشرحت الدكتورة حتى تستدرك ذعر القادمين الجديدين: "إليزابيت ترقص.

– أضاف هافل: إنها ثملة قليلاً".

لم تكف إليزابيت عن هزّ خصرها ومماوجة صدرها أمام وجه الدكتور هافل المطرق.

سأل المدير: "أين تعلمت إذاً هذه الرقصة الجميلة؟"

أطلق فليسشمان المترع بالسخرية ضحكة علنية "أه! أه! أه! رقصة جميلة! أه! أه! أه!

– ردّت إليزابيت على المدير: إنه مشهد رأيته في حانة لرقص التعري في فيينا.

– اغتاظ المدير برقة: حسناً، حسناً، منذ متى تتردد ممرضاتنا على حانات لرقص التعري؟

– قالت إليزابيت مماوجة صدرها حوله: هذا ليس ممنوعاً رغم كل شيء أيها المدير!".

أخذ الغيظ يتدفق في جسد فليسشمان باحثاً عن مخرج فقال: "إنك في حاجة إلى البرومور(*) لتسكينك وليس لرقصة تعري. ستنتهين إلى الاعتداء علينا.

– قاطعت إليزابيت وهي تماوج صدرها حول الدكتور هسافل: أنتَ، ليس لديك شيء تخشى عليه. الأدعياء البليدون لا يسلّونني.

– سأل المدير بودّ: وهل أعجبتك رقصة التعري تلك؟

– أصدقك القول! كانت توجد سويدية ذات نهدين كبيرين، لكن لدي نهدين أجمل منهما بكثير! (داعبت صدرها وهي تقول هذا) وكانت توجد أيضاً فتاة تتظاهر بالاستحمام في رغوة الصابون في حوض من الكرتون، وخلاسية تمارس العادة السرية أمام الجمهور، هذا هو أفضل ما كان يوجد!

(*) البرمور: اتحاد البروم مع جسم بسيط.

– قال فليسشمان دافعــاً التهكــم الشيطاني إلى مــداه: آه! آه! العادة السرية، هذه بالضبط ما تحتاجين إليها!".

حزن بشكل ردف:

ظلت إليزابيت ترقـص، مـع أن جمهورهـا كـان بالتـأكيد أقـلّ بكثير من جمهور المشاهدين في حانة فيينا لرقص التعري: فهافل يطرق رأسه، والدكتورة تنظر بمكـر، وفليسشـمان باسـتياء والمديـر بتسـامح أبوي. أما ردف إليزابيت الـذي يضيـق عليـه القمـاش الأبيـض لمئزر الممرضة فيعبر الحجرة كشمس مدورة علـى نحـو رائـع، لكنهـا شمـس منطفئة وخامدة (مغلفة بوشاح أبيض)، شمس تحكـم عليهـا النظـرات اللامبالية والمتضايقة للأطباء الحاضرين بعدم اكتراث مثير للرثاء.

جاءت اللحظة التي ظنوا فيها أن إلـيزابيت توشـك علـى خلـع ملابسها بالفعل قطعة تلو أخرى، فتدخّل المدير بصوت قلق: "لكن يا إليزابيت! لسنا هنا في فيينا!

– ممّ تخاف أيها المدير؟! ستعرف على كل حال ما هي عليـه إمرأة عارية!" أعلنت إليزابيت، ثم التفتـت مـن جديـد نحـو الدكتـور هافل وهددته بنهديها: "حسناً يا عزيـزي هـافل! مـاذا يـدور في هـذا الرأس؟ ارفع رأسك! هل مات أحد؟ هـل أنـت في حـداد؟ انظـر إلي! إنني حية، ولستُ علـى حافـة المـوت! مـازلتُ نابضـة بالحيـاة! إنـني أعيش!" وفيما كانت تقول هذا، لم يعد ردفها ردفاً، إنما أصبح الحزن نفسه، حزناً مجسماً على نحو رائع يعبُرُ القاعة راقصاً.

قال هافل – وعيناه مسمرتان على الأرضية الخشبية–: "أعتقـد أن هذا يكفي الآن يا إليزابيت.

– قالت إليزابيت: هذا يكفي؟ لكنني أرقص لأجلك! والآن سأقدم رقصة تعري! رقصة تعري عظيمة!" وفكّت مئزرها المعقود على خصرها، وبحركة راقصة، ألقته على المكتب.

تكلم المدير من جديد وبخوف: "سيكون جميلاً يا إليزابيت أن تقدمي لنا رقصة تعري، لكن في مكان آخر. كما تعرفين، نحن هنا في المشفى".

رقصة التعري العظيمة:

أجابت إليزابيت: "إنني أحسن التصرف أيها المدير!". كانت ترتدي لباسها النظامي، الأزرق الغامق ذي الياقة البيضاء، وكانت تواصل التهزهز.

وضعت بعد ذلك كفيها على وركيها، وزلقتهما على امتداد الجذع. رفعتهما فوق الرأس، ثم تسلقت يدها اليمنى على امتداد ذراعها اليسرى المرفوعة ويدها اليسرى على امتداد ذراعها اليمنى، وأنهت حركة الذراعين باتجاه فليسشمان، كأنها تلقي صدرها عليه. شعر فليسشمان بالخوف وقفز، فصاحت به: "أيها الطفل، تركته يسقط!"

أعادت بعد ذلك يديها إلى وركيها، وزلقتهما على امتداد الساقين: رفعت الساق اليمنى ثم الساق اليسرى وهي منحنية. ثم نظرت إلى المدير وحَرّكَتْ الذراع اليمنى ملقية إليه بتنورتها الوهمية. مَدَّ المدير يده وأحكم قبضته، وأرسل إليها بيده الأخرى قبلة.

بضع هزات أيضاً وبضع خطى، ثم انتصبت إليزابيت على رؤوس أصابعها، ولوت ذراعيها إلى الخلف، وتشابكت أصابعها

وسط ظهرها. وبعد ذلك سحبت الذراعين إلى الأمام بحركات راقصة، وداعبت الكفّ اليمنى باليد اليسرى والكفّ اليسرى باليد اليمنى، ومن جديد قامت بحركة ذراع رشيقة. هذه المرة باتجاه الدكتور هافل الذي بدوره ردَّ بحركة خجلة ومتضايقة من يده.

لكن إليزابيت أخذت تتمشى الآن في الغرفة بعظمة؛ راحت تستعرض مشاهديها الأربعة الواحد تلو الآخر، رافعة أمام كل واحد منهم العري الرمزي لجسدها. توقفت في النهاية أمام هافل، وأخذت تماوج وركيها، ثم زلقت يديها على امتداد جذعها وهي تنحني بخفة. عندئذ (كما منذ قليل)، رفعت أولاً ساقاً، ثم الأخرى، وانتصبت بانتصار، رافعة السروال الوهمي بيدها اليمنى بين الإبهام والسبابة. من جديد وبرشاقة، قامت بحركة نحو الدكتور هافل.

كانت متفاخرة بعريها الوهمي، ولم تعد تنظر إلى أحد، ولا حتى إلى هافل. راحت تنظر إلى جسدها المتموج، وعيناها نصف مغمضتين، ورأسها مائل جانباً.

تحطّمت بعد ذلك وضعية الزهو، وجلست إليزابيت على ركبتي الدكتور هافل. قالت متثائبة: "إنني منهكة". أمسكت كأس هافل وشربت جرعة. قالت لهافل: "دكتور، أليس لديك أقراص لتنشيطي؟ فرغم كل شيء لن أخلد إلى النوم!

- قال هافل: لأجلك، لدي كل ما تريدين يا إليزابيت!"وأنهضها عن ركبتيه، وأجلسها على الكرسي، ثم توجه إلى الصيدلية. وجد فيها منوماً فعالاً فأعطى منه قرصين إلى إليزابيت.

– سألت: "هذا سينشطني؟

– مثلما أُدعى هافل"، قال هذا الأخير.

كلمات وداع اليزابيت:

عندما ابتلعت إليزابيت القرصين، أرادت الجلوس ثانية عن ركبتي هافل، لكنه أبعد ساقيه فسقطت إليزابيت.

تأسف هافل لذلك في الحال، لأنه لم يقصد توجيه هذه الإهانة إلى إليزابيت، والحركة التي قام بها كانت بالأحرى رَدَّ فعل عفوي سببه النفور الصادق الذي يشعر به من فكرة تلامس ردف إليزابيت بفخذيه.

حاول إذاً إنهاضها ثانية، لكن إليزابيت تشبثت بالأرض بكل ثقلها، بإصرار نحيبي.

استقر فليسشمان أمامها: "أنت ثملة وعليك الخلود إلى النوم".

تأملته إليزابيت من أسفله إلى أعلاه باحتقار بالغ وقالت له (مستمتعة بماسوشية مؤثرة لوجودها على الأرض): "وغد، أحمق" ومرة أخرى أيضاً: "أحمق".

حاول هافل من جديد إنهاضها إلا أنها تخلصت منه بعنف وانفجرت بالبكاء. لم يجد أحد شيئاً ليقوله، وراح نحيب إليزابيت يرتفع كعزف كمان في الحجرة الصامتة. بعد برهة مديدة، خطرت للدكتورة فكرة الصفير بلطف. نهضت إليزابيت بوثبة واتجهت نحو الباب، وعندما وضعت يدها على القبضة، التفتت وقالت: "أوغاد. أوغاد. ليتكم تعرفون. لكنكم لا تعرفون شيئاً. لا تعرفون شيئاً".

مرافعة المدير ضد فليسشمان:

أعقب ذهاب إليزابيت صمت، بادر المدير أولاً إلى قطعه: "كما ترى يا صغيري فليسشمان. أنت تدعي الشفقة على النساء. فإن كنت تشفق عليهن، فلماذا لم تشعر بالشفقة على إليزابيت؟

– أجاب فليسشمان: بماذا يعنيني هذا؟

– لا تتظاهر بأنك لا تعرف شيئاً! أخبرتك بذلك منذ قليل. إنها موهلة بك!

– سأل فليسشمان: هل أستطيع شيئاً حياله؟

– قال المدير: لا تستطيع شيئاً حياله. لكنك فقط معها وتؤلمها. وهذا تستطيع شيئاً حياله. فهي لم تهتم طوال الأمسية إلا بأمر واحد، بما كنت ستفعله، وفيما إذا كنت سترمقها بنظرة، وتبتسم لها وتلاطفها بكلمة. وتَذَكَّرْ ما قلته لها!

– رَدَّ فليسشمان (لكن بصوت يداخله الشك): لم أقل لها شيئاً مخيفاً جداً.

– تَهَكَّمَ المدير: لاشيء مخيف جداً. سَخِرْتَ منها حين رَقَصَتْ مع أنها لم ترقص إلا لأجلك، نصحتها بتعاطي السبرومور، قلْتَ لها بأن أفضل ما يمكنها أن تقوم به هو ممارسة العادة السرية. لا شيء مخيف! وحين رَقَصَتْ رقصة التعري تَرَكْتَ صدارها يسقط على الأرض.

– احتج فليسشمان: أي صدار؟

– قال المدير: صدارها. لا تتغاب. وفي النهاية أرسلتها للنوم، مع أنها تناولت أقراصاً ضد التعب.

– دافع فليسشمان عن نفسه: لكنها سعت وراء هافل!

– قال المدير بقسوة: لا تتخابث. ماذا كنت تريدها أن تفعل، ما دمت لم تكن تهتم بها؟ كانت تستفزك. ولم تكن ترغب إلا بشيء واحد، شذرات من غيرتك، وبعد هذا تدعي أنك جنتلمان!

– قالت الدكتورة: دعه وشأنه الآن. إنه فظ لكنه فتي.

– قال هافل: إنه رئيس ملائكة العقاب".

الأدوار الميثيولوجية:

قالت الدكتورة: "أجل، هذا صحيح. انظروا إليه: رئيس ملائكة وسيم ومخيف.

– لفت المدير الانتباه بصوت ناعس: إننا جمعية ميثيولوجية حقيقية، لأنك أنتِ، أنتِ ديانا، باردة ورياضية وخبيثة.

– قالت الدكتورة: وأنت، أنت ستير(*)، عجوز وخليع وثرثار، وهافل هو دون جوان. ليس عجوزاً لكنه كهل.

– أجاب المدير عائداً إلى موضوعه منذ قليل: هيا إذاً! هافل هو الموت".

نهاية الدون جوانات:

"إن سألتموني هل أنا دون جوان أو الموت؟ عليّ أن أتبنى رأي المدير ولو على مضض، قال هافل وابتلع جرعة كبيرة. كان دون جوان

(*) ستير: شخص خرافي نصفه الأعلى بشر، ونصفه الأدنى ماعز.

فاتحاً، بل الفاتح. فاتحاً عظيماً. لكنني أسألكم كيف تريدونني أن أكون فاتحاً في منطقة لا أحد يقاومكم فيها، وكل شيء ممكن فيها ومباح؟ انتهى عهد الدون جوانات. السليل الحالي للدون جوان لم يعد يغزو، إنما يجمع. شخصية الفاتح العظيم أعقبتها شخصية هاوي المجموعات العظيم، لكن هاوي المجموعات لم يعد يشترك بشيء مطلقاً مع دون جوان. كان دون جوان شخصية تراجيدية. كان موصوماً بالخطيئة. كان يأثم بمرح ويسخر من الله. كان مجدفاً وانتهى إلى الجحيم.

– "كان دون جوان يحمل على كاهله عبئاً تراجيدياً ليس لدى هاوي المجموعات العظيم أدنى فكرة عنه، لأن كل ثقل في عالمه هو بلا وزن. استحالت الكتل الصخرية إلى زغب. كانت نظرة في عالم الفاتح تحوي ما تحويه الآن في عالم هاوي المجموعات عشرة سنوات من الحب الجسدي الأكثر مواظبة.

"كان دون جوان سيداً، بينما هاوي المجموعات عبد. كان دون جوان يخرق بوقاحة الأعراف والقوانين. أما هاوي المجموعات العظيم فلا ينفك يساير بخضوع وبعرق جبينه العرف والقانون، لأن تنظيم المجموعات أصبح بعد الآن جزءاً من التهذيب واللياقة، صار تنظيم المجموعات يُعَدُّ تقريباً بمنزلة الواجب. وإذ أشعر بنفسي مذنباً، فهذا، فقط، لأني لا آخذ إليزابيت.

"لا يربط هاوي المجموعات العظيم شيء بالتراجيديا ولا بالدراما. وبفضله أصبح الشبق، الذي كان أصل المصائب، أمراً شبيهاً بالإفطار أو العشاء، شبيهاً بجمع الطوابع، بلعبة كرة الطاولة أو التبضع في المخازن. أدخل هاوي المجموعات الشبق في الميدان

المبتذل. صنع منه كواليس ومنصات مسرح لن تحدث فيه أبداً الدراما الحقيقية. وا أسفاه يا أصدقائي، هتف هافل بنبرة مؤثرة، غراميلتي (إذا سمحت لنفسي بتسميتها كذلك) هي منصات مسرح لا يحدث فيه شيء.

- "يا عزيزتي الدكتورة ويا عزيزي المدير. أنتما قارنتما دون جوان بالموت، كطرفي تناقض. وهكذا كشفتما جوهر المشكلة بمحض الصدفة وسهواً. انظروا! كان دون جوان يجابه المستحيل. وهذا ما يُعَدُّ إنسانياً إلى درجة كبيرة. وبالمقابل، لا شيء يستحيل في مملكة هاوي المجموعات العظيم، لأنها مملكة الموت. هاوي المجموعات العظيم، هو الموت الذي جاء يسعى بنفسه إلى التراجيديا والدراما والحب. الموت الذي جاء يسعى إلى دون جوان. دون جوان حتى في النار الجهنمية التي أرسله إليها الكوماندور. أما في عالم هاوي المجموعات العظيم الذي ترفرف في فضائه الشهوات والمشاعر كريشة، في ذاك العالم، دون جوان ميت حتماً.

"هيا إذاً يا سيدتي العزيزة، قال هافل بحزن، أنا دون جوان! هذا ما قد أقدمه لأرى الكوماندور، لأحس فوق روحي بالثقل الفظيع للفتنة، لأشعر بتزايد عظمة التراجيديا في نفسي! هيا إذاً يا سيدتي، إنني في أحسن الأحوال، شخصية كوميدية، وحتى هذه لا أدين بها لنفسي، إنما إلى دون جوان شخصياً، لأنه على الخلفية التاريخية لمسرحه التراجيدي، وحسب، يمكنكم أيضاً أن تفهموا، بطريقة ما، الكوميديا الحزينة لوجودي كمطارد للنساء، الوجود الذي بدون هذه العلامة ليس إلا رتابة تافهة، ومشهداً طبيعياً مملاً".

إشارات جديدة:

سكت هافل بعد أن تعب من هذه الخطبة المسهبة (التي ترك المدير الناعس رأسه، أثناءها، يسقط على صدره مرتين). تكلمت الدكتورة بعد فترة صمت مفعمة بالتأثر: "لم أكن أعلم يا دكتور أنك خطيب فصيح. وصفت نفسك بسمات شخصية كوميدية، رتيبة وضجرة، كأنك عديم الشأن! ومع الأسف كانت الطريقة التي عبرت بها فائضة النبل قليلاً. إنها لباقتك اللعينة: تصف نفسك بالمتسول، لكنك تختار لهذه الغاية كلمات أميرية، حتى تصبح رغم ذلك أميراً أكثر منك متسولاً. إنك غشاش عجوز يا هافل. مزهو حتى في اللحظات التي تتمرغ بها في الطين. إنك غشاش قديم ودنيء".

قهقه فليسشمان بضحكة رنانة لأنه ظن في غمرة بهجته أنه كشف في كلمات الدكتورة عن الاحتقار حيال هافل، لذلك اقترب من النافذة متشجعاً من سخرية الدكتورة ومن ضحكته الخاصة وقال بنغمة ممدودة: "يا له من ليل!.

– قالت الدكتورة: أجل. ليل ساطع. وهافل يمثل دور الموت! هل لاحظت فقط يا هافل أن جو الليل ساحر؟

– قال فليسشمان: طبعاً لا. المرأة هي المرأة، والليل يعادل ليلاً آخر، الشتاء والصيف هما الشيء نفسه. الدكتور هافل يرفض التمييز بين الصفات الثانوية.

– قال هافل: لقد كشفتني تماماً".

خَمَّنَ فليسشمان أن موعده هذه المرة مع الدكتورة ناجحاً: لقد أفرط المدير في الشراب وبدا أن النعاس الذي بدأ يستعد منذ بضعة دقائق، يضعف يقظته كثيراً. قال فليسشمان باحتشاد مثانيٍ" وتوجه نحو الباب بعد أن رمق الدكتورة بنظرة.

الغاز:

– فكّر أيضاً في الممر، بسرور، أن الدكتورة أمضت الأ السخرية من الرجلين، المدير وهافل الذي وصفته للتو بكثير من بالغشاش، وأذهلته رؤية حالة متكررة كانت تدهشه كل مرة لأنها تتكرر بمثل هذا الانتظام: كان يُعجبُ النساء وكن يفضلْ الرجال المجربين، وهذا ما كان يشكلُ في حالة الدكتورة بوضوح إمرأة متشددة فوق العادة، ذكية ومتعجرفة (لكن بظر انتصاراً جديداً ومفاجئاً.

اجتاز فليسشمان الممر الطويل وهو في تلك الحالة وتوجه نحو المخرج. كان قد وصل تقريباً إلى الباب الذي إلى الحديقة، حين خرشت فجأة منخريه رائحة غاز. وشمَّ. كانت منبعثة من الباب الذي يفصل الممر عن استراحة الممرضات الصغيرة. أدرك فليسشمان فجأة أنا بخوف شديد.

ركض في أول الأمر للبحث عن المدير وهافل، إلا أنه في ذلك، وضع يده على مقبض الباب (بالتأكيد لأنه كان يفتح الباب سيكون موصداً ومغلقاً بالرتاج). لكن الباب انفتح في دهشته. كان مصباح السقف مضاءً، وينير جسد المرأة

والممدد على الأريكة. ألقى فليسشمان نظرة دائرية عبر الحجرة، ووثب نحو سخان صغير. أدار صنبور الغاز الذي كان مفتوحاً. ثم هُرِعَ، إلى النافذة وفتحها على مصراعيها.

ملاحظة بين قوسين:

(يمكن القول إن فليسشمان تصرف برباطة جأش وبالتالي بسرعة بديهة. مع ذلك ثمة أمر لم يلاحظه بما يكفي من رباطة الجأش. طبعاً، ظل محدقاً لبرهة مديدة في جسد إليزابيت العاري، إلا أن خوفاً كبيراً كان يعتريه فلم يستطع، خلف حجاب هذا الخوف، أن يتبين ما يمكننا الآن الاستمتاع به بمنتهى التمهل، مستفيدين من استرجاع مفيد.

كان هذا الجسد بهياً. كان مستلقياً على الظهر والرأس مائل قليلاً، الكتفان متقاربان نوعاً ما، والنهدان الجميلان يتزاحمان كاشفين عن شكلهما المكتنز. إحدى الساقين ممدودة والأخرى مثنية برشاقة مما يتيح للمرء أن يشاهد امتلاء الفخذين الملفت للنظر، واللون الأسود المعتم لشعر العانة الكث للغاية).

طلب النجدة:

بعد أن فتح فليسشمان النافذة على مصراعيها والباب، وثب إلى الممر ونادى للمساعدة. وما أعقب ذلك جرى بفعالية ناجعة: تنفس اصطناعي، مكالمة هاتفية لقسم الإسعاف، وصول عربة نقل المرضى، تسليم المريضة للطبيب المناوب، جلسة تنفس اصطناعي جديدة، عودة للحياة، نقل دموي، وفي النهاية، تنفس الجميع الصعداء حين اتضح أن حياة إليزابيت أُنقذت.

* * *

الفصل الثالث

كل واحد قال شيئاً:

حين خرج الأطباء الأربعة من قسم الإسعاف وألفوا أنفسهم في الساحة، بدوا منهمكين.

قال المدير: "لقد أَفْسَدَتْ علينا حوارنا تلك الصغيرة إليزابيت".

قالت الدكتورة: "النساء غير الراضيات يجلبن النحس دوماً".

قال هافل: "هذا غريب. ترتب عليها أن تفتح الغاز لكي نتبين أنها جميلة القوام".

عند هذه الكلمات، نظر فليسشمان (ملياً) إلى هافل وقال: " لم تعد لدي رغبة بالشرب ولا بالمسامرة. طابت ليلتكم" وتوجّه نحو مخرج المشفى.

نظرية فليسشمان:

كان فليسشمان يشعر بالاشمئزاز من أحاديث زملائه.*كان* يرى فيها برودة الرجال والنساء المتقدمين في السن، وقساوة عمرهم التي تنتصب أمام شبابه كحاجز منيع. لذلك شعر بالمتعة لأنه وحيد وذهب مشياً عن عمد حتى يتذوق نكهة نشوته تماماً: ظل يُرَدِّدُ بخوف عذب أن إليزابيت أشرفت على الموت وأنه هو المسؤول عن ذلك.

لم يكن يجهل بالطبع أن الانتحار ينجم عادة عن كوكبة كاملة من الأسباب وليس عن سبب واحد؛ لكنه لم يستطع أن ينكر أن أحد تلك الأسباب، وبلا ريب السبب الحاسم، كان هو، بمجرد وجوده وسلوكه اليوم.

صار يتهم نفسه الآن بطريقة مؤثرة. أخذ يقول لنفسه بأنه كان أنانياً في النظرة المزهوة المسمرة على نجاحاته الغرامية. راح يتخيل نفسه مضحكاً لأنه ترك نفسه ينبهر بالاهتمام الذي أظهرته له الدكتورة. ولامَ نفسه لأنه جعل من إليزابيت مجرد شيء، وإناء استخدمه لصب جام غضبه عندما اعترض المدير الغيور موعده الليلي. بأي حق عامل مخلوقة بريئة بهذا الشكل؟

مع ذلك، لم يكن طالب الطب الشاب إنساناً ساذجاً؛ فكل واحدة من حالاته النفسية كانت تتضمن في ذاتها جدل التأكيد والنفي، بحيث أن صوت المتّهِم الداخلي أخذ يردُّ الآن على صوت المدافِع الداخلي: كانت السخريات التي وجهها إلى إليزابيت غير لائقة حتماً، لكنها بالتأكيد ما كانت لتستتبع نتائج بمثل هذه التراجيدية لو لم تكن إليزابيت قد تتيمت به. والحال هذه، هل كان بوسع فليسشمان فعل شيء إذا كانت إمرأة مغرمة به؟ وهل يصبح مسؤولاً بشكل آلي عن تلك المرأة؟

توقف عند هذا السؤال الذي كان يبدو له المفتاح لكل سرّ الوجود الإنساني. توقف حتى عن المشي، وصاغ الإجابة الأكثر جدية في العالم: أجل، لقد أخطأ منذ قليل حين قال المدير بأنه غير مسؤول عما يسببه بغير علمه. هل كان بمقدوره فعلاً اختصار شخصيته إلى ما كان

يدركه ويعيه؟ ألم يكن أيضاً جزءاً من دائرة شخصيته ما كان يحكم بغير وعي؟ وأي شخص غيره يمكنه أن يكون مسؤولاً عن ذلك؟ أجل، كان مذنباً؛ مذنباً بحب إليزابيت له؛ مذنباً لجهله هذا الحب؛ مذنباً لرفضه له؛ مذنباً. ولولا قليل، لقتل كائناً إنسانياً.

نظرية المدير:

بينما كان فليسشمان يستسلم لمحاسبة نفسه، عاد المدير وهافل والدكتورة إلى قاعة المناوبة. لم يعد لديهم بالفعل رغبة في الشرب؛ فلزموا الصمت لبعض الوقت؛ ثم قال الدكتور هافل: "ما الذي أمكنه أن يدور في رأس إليزابيت؟

– قال المدير: ليست حالة عاطفية. حين يرتكب شخص ما حماقات من هذا النوع، أمنع نفسي من أي انفعال. وفضلاً عن ذلك، لو لم تكابر وفَعَلْتَ معها مالا تتردد بفعله مع جميع النساء الأخريات، لما حدث هذا.

– قال هافل: أشكرك على تحميلي مسؤولية انتحار.

– أجاب المدير: لنكن دقيقين. ليس المقصود انتحاراً، إنما المقصود حفل انتحاري مدبَّر بحيث يتفادى الكارثة. عزيزي الدكتور، عندما يريد المرء خنق نفسه بالغاز يبدأ بإغلاق الباب بالمفتاح. والأَوْلَى من هذا، أن يهتم المرء بسد كل الشقوق حتى يؤخر اكتشاف وجود الغاز ما أمكن. لكن إليزابيت لم تكن تفكر في الموت، كانت تفكر بك.

"الله أعلم منذ كم من الأسابيع كانت تستمتع بفكرة أنها ستكون برفقتك في المناوبة الليلية، ومنذ بداية الأمسية ركّزت انتباهها

عليك بفجور. لكنكَ عاندتَ. وكلما أمْعَنْتَ في عنادك، أمْعَنَتْ هي في الشرب وأمْعَنَتْ في إظهار إغرائها: تكلمتْ ورقصتْ وأرادتْ القيام برقصة تعري...

"انتبه، أتساءل إن كان لا يوجد رغم كل شيء أمر ما مؤثر في ذلك. حين أدركت أنها لن تستطيع جذب أنظارك ولا سمعك، راهنتْ بكل شيء على حاسة شمك وفتحتِ الغاز. وقبل أن تفتح الغاز خلعت ملابسها. فهي تعرف بأن لديها جسداً جميلاً، وأرادت إرغامك على التأكد بنفسك من ذلك. تَذَكَّرْ ما قالته وهي تغادر: ***ليتكم تعرفون. إنكم لا تعرفون شيئاً. لا تعرفون شيئاً***. وها أنت الآن تعرف أن إليزابيت وجهاً قبيحاً لكن لها جسداً جميلاً. تَأَكَّدْتَ من ذلك بنفسك. وإنك تدرك أن محاكمتها ليست متهافتة جداً. وأتساءل هل ستستسلم الآن".

هزّ هافل كتفيه وقال: "هذا ممكن.

– قال المدير: إنني واثق من ذلك".

نظرية هافل:

"أيها المدير، ما تقوله قد يبدو مقنعاً، لكن ثمة عيب في محاكمتك: إنك تبالغ في تقدير دوري في هذه القضية. لأنني لست المقصود. فرغم كل شيء لست الوحيد الذي رفض النوم مع إليزابيت. لم يكن أحد يرغب بالنوم معها.

"منذ قليل، حين سألتني لماذا لم أرغب بالحصول على إليزابيت، أجبتُك بهذياناتٍ ما عن روعة حرية الاختيار، وعن حريتي التي أحرص

على الحفاظ عليها. لكنها لم تكن سوى أقوال عابثة هدفها تشويه الحقيقة التي هي جدٌّ مختلفة وليست جميلة إطلاقاً: فإذا كنتُ قد رَفَضْتُ إليزابيت، فذلك لأنني عاجز عن التصرف كرجل حر، لأن الدُرْجَة السائدة هي عدم النوم مع إليزابيت. لا أحد ينام معها، ولو نام أحد معها، لما اعترف بذلك أبداً، لأن كل الناس كانوا سيسخرون منه. الدُرْجة هي تنين مخيف وقد أذْعَنْتُ لها بخضوع. لكن إليزابيت إمرأة ناضجة، وهذا ما أطار صوابها. وربما ما أطار صوابها أكثر من كل شيء هو أنني، أنا، من يرفضها، لأن الجميع يعرف بأنني آخذ كل شيء. لكن الدُرْجَة أغلى عندي من صواب إليزابيت.

"وأنت محق أيها المدير: إنها تعرف بأن لها جسداً جميلاً، وكانت تحسب أن هذا الوضع غير معقول وجائر فأرادت الاحتجاج. تَذَكَّرْ أنها لم تكف طيلة الأمسية عن جذب الانتباه إلى جسدها. فعندما تكلمت عن راقصة التعري السويدية التي شاهدتها في فيينا، داعبت نهديها وأعلنت أنهما أجمل من نهدي الراقصة السويدية. وتَذَكَّرْ: اجتاح نهداها وردفها هذه الحجرة طيلة الأمسية كجمهور متظاهرين. أتكلمُ جاداً أيها المدير، كانت مظاهرة.

"وتَذَكَّرْ رقصة تعريها، تَذَكَّرْ كيف كانت تؤديها! أيها المدير، إنها رقصة التعري الأكثر حزناً التي شاهدتها حتى الآن. كانت تتعرى بانفعال، لكن دون أن تتحرر من الرداء المقيت لزيها كممرضة، كانت تتعرى، لكنها لم تكن تستطيع التعري. ومع أنها تعرف حق المعرفة بأنها لن تتعرى، فقد راحت تتعرى لأنها كانت تريد أن تبلغنا حزنها والرغبة الخيالية بالتعري. أيها المدير، لم يكن ذلك تعرياً، إنما أغنية رثاء التعري، أغنية عن استحالة التعري، عن

استحالة ممارسة الحب، عن استحالة الحياة! وحتى هذا، لم نرغب بسماعه، كنا نطأطئ رؤوسنا ونتظاهر بعدم الاكتراث.

– هتف المدير: أوه، زير رومانسي! هل تعتقد حقاً أنها كانت تريد الموت؟

– قال هافل: تَذَكَّرْ ما قالته لي وهي ترقص! قالت لي: مازلتُ حية! مازلتُ نابضة بالحياة! ألا تتذكر؟ منذ اللحظة التي بدأت فيها بالرقص، كانت تعرف ما ستفعل.

– ولماذا أرادت أن تموت عارية تماماً، لماذا؟ كيف تفسر ذلك؟

– كانت تريد الدخول إلى أحضان الموت كما تدخل إلى أحضان عاشق. لهذا تعرّت وصَفَّفَتْ شعرها وتَجَمَّلَتْ...

– ولهذا لم تقفل الباب بالمفتاح، أليس كذلك؟ أرجوك، لا تحاول إقناع نفسك بأنها كانت تريد الموت حقاً.

– لعلها لم تكن تعرف بالضبط ما تريد. هل تعرف أنت نفسك ماذا تريد؟ من منا يعرف ما يريد؟ كانت تريد الموت، و لم تكن تريده. أرادت الموت بمنتهى الصدق، وأرادت في الوقت نفسه (بمنتهى الصدق أيضاً) إرجاء التنفيذ الذي يقودها إلى الموت، والذي كانت تشعر بعظمته. أنت تدرك تماماً أنها لم تكن تريد أن يشاهدها أحد عندما تغدو شاحبة تماماً وعفنة ومشوهة من الموت. أرادت أن تبدي لنا جسدها، الجميل جداً، والمبخس القدر كثيراً، الذي كان ينطلق بكل أبهته للتزاوج مع الموت؛ أرادت في تلك اللحظة الحاسمة، على الأقل، أن نرغب بذلك الجسد في الموت وأن نشتهيه...".

نظرية الدكتورة:

بدأت الدكتورة التي كانت قد سكتت حتى ذلك الحين وأصغت بانتباه إلى الطبيبين: "يبدو لي كلامكما منطقياً، كما يمكن لامرأة تصوره. ونظريتاكما بحَدِّ ذاتها مقنعتان بما فيه الكفاية وتنمان عن معرفة عميقة بالحياة. ليس فيهما إلا عيب واحد هو أنهما لا تحتويان على ذرة حقيقة. لم تكن إليزابيت تفكّر في الانتحار، لا في الانتحار الحقيقي ولا في الانتحار المصطنع. ولا في أي انتحار".

استمتعت الدكتورة لبرهة بتأثير كلماتها وتابعت: "سادتي، من الواضح أنكما تشعران بالإثم. حين عدنا من قسم الإسعاف، تجنبتما حجرة الراحة. لم تكونا تريدان رؤيتها ثانية. أما أنا فقد تفحصتها بعناية بينما كنتما تقومان بإجراء التنفس الاصطناعي لإليزابيت. كانت توجد ركوة قهوة على السخان. وضعت إليزابيت الماء للتسخين كي تعدّ لنفسها قهوة وغفت. غلى الماء وأطفأ اللهب".

عاد الطبيبان إلى حجرة الراحة مع الدكتورة. كان ذلك صحيحاً، فهناك ركوة قهوة على السخان، وحتى بقي عليه قليل من الماء.

دُهِشَ المدير وقال: "لكن في هذه الحالة، لماذا كانت عارية تماماً؟

– قالت الدكتورة: انظر جيداً" وأشارت إلى زوايا الحجرة: كان الثوب الأزرق الشاحب منشوراً على الأرض تحت النافذة، وحمالة النهدين تتدلى معلقة على الصيدلية، والسروال الداخلي الأبيض أُلقي أرضاً في الزاوية المقابلة. "رمت إليزابيت ملابسها في كل الزوايا، وهذا ما يثبت أنها أرادت، ولو وحدها، إجراء حفلة رقصة التعري التي ارتأيتَ أيها المدير أن من الحكمة منعها!

"عندما تعرت تماماً، شعرت أنها متعبة بدون شـك. لم يكـن هـذا يوافقها، لأنها لم تكن قد تخلت عن آمالها في هـذه الليلـة. كـانت تعـرف أننا سنغادر في النهاية، وأن هـافل سيبقى وحيـداً. لهـذا طلبت أقراصـاً منشطة. أرادتْ أن تُحَضِّرَ لنفسها القهوة فوضعتِ الركوة على السخان. بعد ذلك، نظـرتْ من جديد إلى جسـدها، فأثارهـا ذلـك. يـا سـادتي، كانت لدى إليزابيت مزية عليكمـا. لم تكـن تـرى رأسـها. لذلـك فهـي تعتبر نفسها جميلة وبدون عيب. أثارها جسدها فتمـددت علـى الأريكـة بشهوانية. لكن من الواضح أن النعاس فاجأها قبل اللذة.

– قال هافل: بالتأكيد. لا سيما أنني أعطيتها منومات!

– قالت الدكتورة: هـذا مـن لطفـك. إذن، هـل يوجـد شـيء أيضاً غير واضح؟

– قال هافل: أجل، تذكري ما قالتـه لنـا: ***لسـت علـى حافـة الموت! ما زلت نابضة بالحياة! أنا أعيش!*** وهذه الكلمـات الأخـيرة: ***ليتكم تعرفون شيئاً. لكنكم لا تعرفون شـيئاً***. قالتهـا بطريقـة مؤثـرة جداً، كما لو كانت كلمات وداع.

– قـالت الدكتـورة: هيـا يـا هـافل. كـأنك لا تعـرف بـأن تسـعاً وتسعين في المائة من الكلمات التي يتفوه بها المرء هي كلمات عابثة. هـل تتكلم أنت نفسك في معظم الأحيان لأجل شيء آخر غير الكلام؟"

ثرثر الأطباء لبعض الوقـت أيضـاً، ثـم خرجـوا. صـافح المديـر والدكتورة هافل وابتعدا.

كان الأريج يعبق في النسيم الليلي:

وصل فليسشمان أخيراً إلى طريق الضاحية التي يسكن فيها عند والديه في فيلا صغيرة محاطة بحديقة. فتح الشبك، ودون أن يذهب إلى باب المدخل، جلس على مقعد تنحني فوقه ورود رعتها والدته بعناية.

كان الأريج يعبق في نسيم الصيف الليلي وكلمات "مذنب" "أنانية" "محبوب"، "موت" تدور في صدر فليسشمان وتملؤه بسعادة غامرة. كان يشعر أن أجنحة تنمو له في ظهره.

أدرك في هذا الفيض من البهجة الحزينة أنه كان محبوباً كما لم يكن كذلك قط. بالطبع سبق أن قدمت له نساء عديدات براهين ملموسة على مشاعرهن، لكنه صار يرغم نفسه الآن على الصراحة القاسية: هل كان ذلك دوماً حباً؟ ألم يكن يستسلم للأوهام؟ ألم يحدث له أن تخيل أكثر مما هو موجود في الحقيقة؟ ألم تكن كلارا على سبيل المثال منتفعة أكثر منها عاشقة؟ ألم تكن تحرص على الشقة التي كان على وشك أن يزودها بها أكثر مما تحرص عليه؟ بدا كل شيء باهتاً إزاء تصرف إليزابيت.

أخذت كلمات كبيرة تعبق في الهواء، وراح فليسشمان يقول لنفسه بأنه ليس للحب سوى معيار وحيد: الموت. في غاية الحب الحقيقي يوجد الموت، ووحده الحب الذي يوجد الموت في غايته هو الحب.

بدأ الأريج يعبق في النسيم وصار فليسشمان يتساءل: أي إنسان سيحبه يوماً مثل تلك المرأة القبيحة؟ لكن ما هو الجمال والقبح إزاء الحب؟ ما هو قبح الوجه إزاء عاطفة كان سموها يعبر عن المطلق؟

(المطلق؟ أجل. فليسشمان هو مراهق دلف منذ قليل إلى عالم الراشدين المضطرب. يبذل ما بوسعه لكي يغوي النساء، لكن ما يبحث عنه هو على الأخص الاحتضان المواسي، الأبدي، المخلّص، الذي سينقذه من النسبية الفظيعة لعالم اكتشفه حديثاً).

*　　*　　*

الفصل الرابع

عودة الدكتورة:

كان الدكتور هافل مستلقياً منذ بضع لحظات على الأريكة، تحت غطاء قطني رقيق، حين سمع طرقات على الزجاج. لمح وجه الدكتورة في ضوء القمر. فتح النافذة وسأل: "ماذا يحدث؟".

– قالت الدكتورة: افتح لي، وتوجهت بمشية رشيقة نحو باب الجناح.

زرّر هافل قميصه، ثم أطلق تنهيدة، وخرج من الحجرة.

عندما فتح باب الجناح، تقدمت الدكتورة دون أن تعطي مزيداً من الإيضاحات، وحين جلست على مقعد في قاعة المناوبة، مقابل هافل، أخذت تشرح بأنها لم تستطع العودة إلى منزلها، وأنها شعرت بالقلق على نحو مخيف، وأنها لن تستطيع النوم والتمست من هافل حديثاً قصيراً آخر لكي تسترد هدوءها.

لم يصدق هافل كلمة واحدة مما تقوله الدكتورة وكان لديه من التهذيب (أو التهور) ما يكفي لكي يظهر ذلك.

لهذا قالت له الدكتورة: "بالتأكيد أنت لا تصدقني، لأنك واثق من أنني لم آتِ إلا للنوم معك".

أومأ الدكتور بالنفي، لكن الدكتورة تابعت: "طبعاً، دون جوان مغرور! حالما تشاهدك إمرأة، فإنها لا تفكر إلا بهذا. وأنت، تنجز مهمتك البائسة مكرهاً ومشمئزاً".

أومأ هافل من جديد بالنفي، لكن الدكتورة تابعت بعد أن أشعلت سيكارة ونفثت الدخان بلا مبالاة: "مسكيني دون جوان، لا تخشَ شيئاً. لم آتِ لكي أزعجك. لا شيء مشترك بينك وبين الموت. كل ذلك ليس إلا مفارقات عزيزنا المدير. فأنت لا تحصل على كل شيء، لسبب وجيه هو أنه ليست كل النساء مستعدات للاستسلام. فأنا على سبيل المثال محصنة تماماً ضدك، يمكنني أن أعدك بذلك.

– أهذا ما جئت لتقوليه لي؟

– ربما. جئت لأواسيك، لأقول لك بأنك لست كالموت. وأني لن أترك نفسي عرضة للاستيلاء."

أخلاقية هافل:

– قال هافل: "هذا لطف منك، لطف ألا تستسلمي وأن تأتي لتقولي لي ذلك. إنك محقة، لا يربطني شيء مع الموت. وليس فقط أني لم أحصل على إليزابيت، إنما لن أحصل عليكِ أيضاً.

– علقت الدكتورة: أوه!

– لا أعني بذلك أنك لا تعجبينني. بالعكس تماماً.

– قالت الدكتورة: رغم كل شيء.

- أجل. أنت تعجبينني كثيراً.

- إذاً، لماذا لا تريد الحصول عليَّ؟ هل لأنني لا أهتم بك؟

- قال هافل: لا، أظن أن لا علاقة لهذا.

- إذاً، لماذا؟

- لأنك عشيقة المدير.

- وبعد؟

- المدير غيور، قد يحزنه هذا.

- قالت الدكتورة ضاحكة: وهل لديك هواجس ضمير؟

- قال هافل: كما تعرفين، لديَّ الكثير من المغامرات الغرامية مع النساء في حياتي، بحيث أنني لا أُقَدِّرُ نتيجة لها، إلا الصداقة الذكورية. هذه الصداقة التي لا تلطخها حماقة الشهوانية هي القيمة الوحيدة التي عرفتها في حياتي.

- هل تعدُّ المدير صديقاً؟

- لقد فعل المدير الكثير من أجلي.

- أجابت الدكتورة: وفعل أيضاً الأكثر لأجلي.

- قال هافل: هذا ممكن، لكن ليس المقصود امتنان، إنه صديق وهذا كل ما في الأمر. إنه رجل رائع. ويحرص عليك. لو حاولتُ الحصول عليك، لاضطررت لِعَدِّ نفسي وغداً".

– قالت الدكتورة: "لم أكن أتوقع أن أسمع من فمك مثل هـذا التقريظ المتحمس جداً للصداقة! أكتشـف فيك مظهـراً جديـداً تمامـاً بالنسبة لي وغير متوقع مطلقاً. لا تتمتع وحسـب، علـى غير المتوقـع، بملكة الحس، إنما تستخدم هذه الملكة (وهذا مؤثـر جـداً) حيـال سيد مسن، أشيب ومنتوف الريـش لا يتبين المرء فيه إلا المضحـك. هـل لاحظـت ذلـك منـذ قليـل؟ هـل شـاهدت كيـف يستلفت الأنظـار باستمرار؟ يريد أن يبرهن دائماً على أمور لا يمكن لأحد تصديقها.

"يريـد أن يبرهن أولاً علـى أنـه ظريـف. أنـت سمعتـه. أمضـى الأمسية في الكلام حتى لا يقول شيئاً، كان يسـلي المتفرجـين، ويعـبر بكلام بارع مثل: الدكتور هافل كالموت، ويختلق المفارقات عن بؤس الزواج السعيد (ما ينوف عن المائة مرة وأنا أسمعه يردد هذه النغمـة!) كان يحاول خداع فليسشمان (كأن ذلك يقتضي الظرف).

"يريد ثانياً أن يُحْتَسَبَ شخصاً شهماً. وفي الحقيقة، يمقـت أي شخص ما يزال لديه شعر على رأسه، لكنـه يضمـر العداء في نفسـه. مدحـك ومدحـني وكـان أبويـاً ورقيقـاً مـع إليزابيت، وحـين خـدع فليسشمان حرص على ألا يتبين فليسشمان ذلك.

"ثالثاً وهو الأهم، يريد البرهنـة علـى أنـه لا يُقَـاوَم، يحـاول بيـأس إخفاء سحنته اليوم تحت مظهره القديم، الذي لم يعد موجوداً مع الأسف والذي لم يعد أي منا يتذكره. هل شاهدت كيف تذرع به بمهـارة لكـي يقص علينا حكاية تلك العاهرة الصغيرة التي لم تكن ترغب به، فقط لكي يستحضر من تلك المناسبة وجهه القديم وينسى هكذا صلعه المحزن؟".

دفاعاً عن المدير:

أجاب هافل: "كل ما تقولينه صحيح تقريباً يا سيدتي العزيزة. لكني لا أرى في ذلك إلا أسباباً إضافية وأسباباً وجيهة لحب المدير، لأن كل هذا يخصني أكثر مما تظنين. لماذا تريدينني أن أسخر من صلع لن أفلت منه؟ لماذا تريدينني أن أسخر من ذلك الجهد المثابر للمدير كي لا يكون ما هو عليه؟

"إما أن يقبل رجل عجوز البقاء على ما هو عليه، أي هذه الفضلة المثيرة للرثاء من نفسه، أو لا يقبل. لكن ماذا عليه أن يفعل إن لم يقبل؟ لا يبقى أمامه إلا التظاهر بأنه ليس ما هو عليه، لا يبقى أمامه سوى أن يخلق بواسطة التصنع المضني، ما لم يعده وما ضَيَّعَهُ، وأن يختلق فرحه وحيويته ووديته. بإحياء صورة شبابه والسعي للاندماج بها واستبدالها بنفسه. إنني أرى نفسي في كوميديا المدير هذه، فهو صورة مستقبلي. هكذا يبقى لي ما يكفي من القوة لرفض الاستسلام الذي هو بالتأكيد شر أسوأ من تلك الكوميديا المحزنة.

"ربما أنت على دراية بلعبة المدير. لكنها لا تزيدني إلا محبة له، ولن أستطيع أبداً إيلامه، وهو ما ينجم عنه أنني لا أستطيع أبداً النوم معك".

جواب الدكتورة:

أجابت الدكتورة: "عزيزي الدكتور، توجد اختلافات بيننا أقل مما تظن. أنا أيضاً أحبه. أنا أيضاً أشفق عليه، تماماً مثلك. ومدينة له أكثر منك. فلولاه، فلولاه، لما حصلت على مثل هذه الوظيفة

الجيدة (أنت تعرف ذلك حق المعرفة، وكل الناس يعرفون ذلك أكثر مما ينبغي) أنت تظن أنني أخدعه؟ وأنني أغشه؟ وأن لديَّ عشاقاً آخرين؟ بأي فرح سيبلغه الناس بذلك! لا أريد إيلام أحد، لا هو ولا نفسي، وأنا بالتالي أقل حرية مما تتخيل. إنني مقيدة تماماً. لكنني مسرورة لأن كل واحد منا فهم الآخر جيداً. لأنك الرجل الوحيد الذي يمكنني معه أن أسمح لنفسي بخيانة المدير. في الحقيقة، أنت تحبه بإخلاص ولا ترغب إطلاقاً بإيلامه. ستكون كتوماً تماماً. يمكنني الوثوق بك. يمكنني إذاً النوم معك..." وجلست على ركبتي هافل. وأخذت تحل أزراره.

- ماذا فعل الدكتور هافل؟

- ماذا كان بوسعه أن يفعل..

الفصل الخامس

في دوامة المشاعر النبيلة:

أقبل الصباح بعد الليل، ونزل فليسشمان إلى الحديقة حتى يقطف منها باقة ورد. ثم استقل الترام إلى المشفى.

كانت لإليزابيت حجرة خاصة بقسم الإسعاف. جلس فليسشمان عند وسادة سريرها، ووضع الباقة على طاولة السرير وأمسك يد إليزابيت حتى يجس نبضها.

سألها بعد ذلك: "هل تتحسنين؟

– قالت إليزابيت: أجل".

وقال فليسشمان بصوت يفيض بالعاطفة: "ما كان يجب عليك ارتكاب حماقة كهذه يا عزيزتي.

– قالت إليزابيت: إنك محق، لكنني غفوت. وضعت الماء للتسخين كي أعد لنفسي القهوة، وغفوت كالحمقاء".

أخذ فليسشمان يتأمل إليزابيت بذهول، لأنه لم يكن يتوقع مثل هذا الكرم منها: كانت تريد إعفاءه من تبكيت الضمير، لم تكن تريد إرهاقه بحبها، وكانت تنكر هذا الحب!

داعب وجنتيها، وأخذ يرفع الكلفة معها، وقد أثيرت مشاعره: "أعرف كل شيء. لَسْتِ بحاجة للكذب، لكنني أشكركِ على أكذوبتك".

كان يدرك أنه لن يستطيع أن يجد لدى أية إمرأة أخرى هذا القدر من النبل والتفاني والإخلاص، وكاد أن يخضع لضغط الإغراء ويطلب منها أن تصبح زوجته. لكنه تمالك نفسه في اللحظة الأخيرة (لدى المرء دوماً متسع من الوقت لتقديم طلب زواج) واكتفى بالقول:

"إليزابيت، إليزابيت، عزيزتي. لأجلك جلبتُ هذه الورود".

حَدَّقت إليزابيت في فليسشمان بهيئة مخبولة وقالت: "لأجلي؟

– أجل لأجلك. لأنني سعيد بوجودي معك الآن. لأنني سعيد بوجودك يا إليزابيت. لعلني أحبك. لعلني أحبك كثيراً. هذا بالتأكيد سبب إضافي لئلا نذهب أبعد من ذلك. أظن أن رجلاً وإمرأة يتحابان أكثر عندما لا يعيشان سوية وعندما لا يعرف أحدهما عن الآخر إلا أمراً واحداً، أنه يعيش، وعندما يكون كل واحد منهما ممتناً للآخر لأنه يعيش ولأنهما يعرفان أنهما يعيشان. وهذا يكفيهما حتى يكونا سعيدين. أشكرك يا إليزابيت، أشكرك على عيشك".

لم تفهم إليزابيت شيئاً من ذلك، لكنها راحت تبتسم ابتسامة مغتبطة، ابتسامة بلهاء، مفعمة بموجة سعادة وموجة أمل.

ثم نهض فليسشمان، وشدّ بيده على كتف إليزابيت (دلالة حب دفين ومكنون) استدار وخرج.

عدم تأكد كل الأشياء:

– قال المدير للدكتورة وهافل عندما اجتمعوا سوية في القسم: "لقد وجَدَتْ بالتأكيد زميلتنا الجميلة، التي تتألق تماماً بالشباب هذا الصباح، التفسير الأصوب للأحداث. وَضَعَتْ إليزابيت الماء للتسخين حتى تعدّ لنفسها القهوة وغَفَتْ. على أي حال، هذا ما تزعمه.

– قالت الدكتورة: أنتم ترون.

– أجاب المدير: لا أرى شيئاً البتة. في نهاية المطاف لا أحد يعرف شيئاً مما جرى. ربما كانت ركوة القهوة موجودة من قبل على السخان. فإذا كانت إليزابيت تريد الانتحار بالغاز، لماذا كانت سترفع الركوة؟

– علّقت الدكتورة: لكنها شَرَحَتْ لك كل شيء!

– بعد الكوميديا التي مثلتها علينا، والخوف الذي سببته لنا، لا يدهشكما أن تحاول جعلنا نعتقد أن كل شيء حصل بسبب ركوة. لا تنسيا أن من يُقْدِم على محاولة انتحار في هذا البلد يُرْسَل بشكل آلي إلى مشفى المجانين للعلاج. هذا الاحتمال لا يُعجب أحداً.

– قالت الدكتورة: هل تستهويك قصص الانتحار أيها المدير؟

– قال المدير ضاحكاً: أتمنى لو أن ضمير هافل يعذبه لمرة واحدة".

ندم هافل:

التقط ضمير هافل الآثم من التعليق التافه للمدير تأنيباً مرمزاً، كانت السماوات تمليه عليه سراً فقال: "المدير محق. لم تكن بالضرورة محاولة انتحار، لكنها ربما كانت كذلك. فضلاً عن هذا، إذا أمكنني التكلم بصراحة، لا ألوم إليزابيت. أخبروني، هل توجد في الحياة قيمة

واحدة مطلقة تنص على أنه يمكن اعتبار الانتحار مرفوضاً من حيث المبدأ؟ الحب؟ أم الصداقة؟ أؤكد لك أن الصداقة ليست أقل هشاشة من الحب وأنه لا يمكن للمرء أن يعول بشيء على الصداقة. أم حب الذات على الأقل؟ أتمنى ذلك. أيها المدير، قال هافل بحماسة تقريباً وكان هذا يرن كأنه ندم، أقسم لك على أنني لا أحب نفسي إطلاقاً.

– قالت الدكتورة بابتسامة: سادتي إذا كان هذا يُجَمِّلُ حياتكم، إذا كان هذا ينقذ نفوسكم، لنقرر أن إلسيزابيت أرادت الانتحار حقاً. هل اتفقنا؟"

نهاية سعيدة:

– قال المدير: "هذا يكفي. لنغيّر الموضوع. تلوث نقاشاتك يا هافل هواء هذا الصباح الجميل! إنني أكبرك بخمسة عشر عاماً. وأنا سيئ الحظ لأنني سعيد في الأسرة، أي لأنني لا أستطيع الطلاق. وأنا تعيس في الحب لأن المرأة التي أحبها مع الأسف ليست إلا هذه الدكتورة! ومع ذلك، أنا سعيد على هذه الأرض!

– قالت الدكتورة للمدير بحنان غير عادي: جيد، جيد جداً. أنا أيضاً سعيدة على هذه الأرض".

انضم فليشمان في هذه اللحظة إلى مجموعة الأطباء الثلاثة وقال: "خرجت لتوي من غرفة إليزابيت. إنها حقاً فتاة شريفة إلى أبعد حد. أنْكَرَتْ كل شيء. وتتحمل كل شيء.

– قال المدير ضاحكاً: أنتم ترون جيداً. ولولا قليل، لدفَعَنا هافل جميعاً إلى الانتحار.

– قالت الدكتورة: طبعاً" واقتربت من النافذة. "سيكون النهار جميلاً. السماء في غاية الصفاء. ما رأيك يا فليسشمان؟"

منذ بضع لحظات،كان فليسشمان يلوم نفسه تقريباً على تصرفه بنفاق متخلصاً من المشكلة بباقة ورد وبضع كلمات جميلة، لكنه صار يهنئ نفسه الآن على عدم تسرعه في اتخاذ القرار. التقط إشارة الدكتورة وفهمها. كان خيط المغامرة على وشك الاستمرار من النقطة التي انقطع عندها في الأمس، حين أفشلت رائحة الغاز موعد فليسشمان مع الدكتورة. ولم يتمالك فليسشمان نفسه عن الابتسام للدكتورة، حتى على مرأى من الدكتور الغيور.

تستمر الحكاية إذاً من حيث انتهت البارحة، لكن فليسشمان يظن أنه يعود إليها أكبر سناً بكثير وأشد عوداً. فخلفه يقف حب عظيم كالموت. يشعر بموجة تكبر في صدره، وهي الموجة الأكثر ارتفاعاً والأشد بأساً مما عرفه من قبل. لأن ما يثيره بمنتهى الشهوانية، هو الموت. الموت الذي قدم له هدية؛ موت ساطع ومنعش.

فليخلِ الأموات القدامى
المكان للأموات الجدد

1

كان يعود إلى منزله سالكاً طريق مدينة بوهيميا الصغيرة التي يسكنها منذ عدد لا بأس به من السنين، مستسلماً لحياة لا فائدة ترجى منها، ولجيران ثرثارين وفظاظة مملة تحدق به في المكتب، وكان يسير بلا مبالاة (مثلما يمشي المرء على طريق مئات المرات المتتالية) حتى كاد يخطئها. لكنها تعرفت إليه من بعيد، وفيما تتقدم لملاقاته، راحت تنظر إليه بابتسامة آلت في اللحظة الأخيرة، عندما تحاذيا، إلى إفلات مفصلة في ذاكرته وجذبته من وسنه.

قال: "لم أفلح في التعرف عليك" لكنه كان اعتذاراً أرعن أحالهما في الحال إلى موضوع مرهق كان الأجدر تجنبه: لم يلتقيا منذ خمسة عشر عاماً وقد هرم كلاهما. سألت: "هل تَغَيَّرتُ كثيراً؟" فأجابها بالنفي، ومع أن هذه كذبة، فإنها لم تكن كذلك تماماً، لأن هذه الابتسامة المخبوءة (التي تعبر بحياء وتواضع عن صعوبة الفرح الأبدي) تأتيه حتى الآن عبر مسافة سنوات عديدة، دونما تغير، وتقلقه: لأن هذه الابتسامة تذكره بهيئة هذه المرأة القديمة بوضوح اضطره إلى بذل جهدٍ حتى ينسى تلك الابتسامة ويرى هيئتها كما أصبحت عليه الآن: إنها إمرأة عجوز تقريباً.

سألها عن المكان الذي تقصده وعما تنويه، فأجابته بأنها جاءت لإنجاز بعض الأعمال وأنه لم يعد أمامها سوى انتظار القطار الذي سيقلها إلى براغ في المساء. عبَّر عن السرور الذي جلبه له لقاؤهما المفاجئ؛ وحين وافقا على الاعتراف (بحق) أن مشربي البيرة في الحي قذران ومزدحمان، دعاها إلى شقته التي لم تكن بعيدة، حيث يمكنه أن يحضر لها القهوة أو الشاي، لا سيما وأنها مكان نظيف وهادئ.

2

كان النهار قد بدأ بداية سيئة بالنسبة لها. فزوجها مدفون في مقبرة هذه المدينة الصغيرة بناءً على أمنية غريبة أفصح عنها في رغباته الأخيرة (عاشا هنا منذ ثلاثين عاماً لبعض الوقت وكانا آنذاك متزوجين، حديثاً، ثم أقاما في براغ حيث مات منذ عشرة سنوات). كانت إذاً قد حصلت على امتياز لمدة عشرة سنوات، واكتشفت منذ بضعة أيام أنها نسيت تجديده وأن المهلة انصرمت. فكرت في البداية بالكتابة إلى مكتب المقبرة، لكنها حين تذكرت أن أية مراسلة مع الإدارة هي مشروع طويل الأمد وعابث، جاءت.

مع أنها تحفظ عن ظهر قلب الطريق المؤدي إلى ضريح زوجها، فقد شعرت يومئذ أنها ترى المقبرة للمرة الأولى. لم تفلح في العثور على الضريح وظنت أنها ضلت. فهمت أخيراً: هناك حيث كانت توجد سابقاً، شاهدة من الصلصال مكتوب عليها اسم زوجها بحروف مذهبة، صارت تنتصب الآن (كانت متأكدة من تعرفها على

المكان من ضريحين مجاورين) شاهدة من الرخام الأسود، منقوش عليها بحروف مذهبة اسم مجهول تماماً.

ذهبت إلى مكتب المقبرة وهي مضطربة. هناك قالوا لها بأن القبور تُفرّغ تلقائياً عند نهاية الامتيازات. لامتهم لأنهم لم يخبروها بأن عليها تجديد الامتياز، وأجابوها بأن ساحة المقبرة صغيرة وأنه يجب *على الموتى القدامى إخلاء المكان للموتى الجدد*. اغتاظت وقالت لهم ، وهي تداري بمشقة نحيبها، إنه ليس لديهم حس بالكرامة الإنسانية ولا احترام للآخرين، لكنها لم تلبث أن أدركت بأن النقاش غير مجدٍ. ومثلما لم تستطع منع موت زوجها، غدت عاجزة أمام هذا الموت الثاني، هذا الموت الثاني *لميت قديم* لم يعد له الحق في الوجود حتى في عالم الموت.

عادت نحو مركز المدينة، وغدا حزنها ممزوجاً بالقلق لأنها راحت تتساءل كيف سيكون بمقدورها أن تشرح لابنها اختفاء ضريح الأب والاعتذار له عن إهمالها. جاءها التعب بعد ذلك: لم تكن تدري كيف تقضي ساعات الانتظار الطويلة حتى يحين موعد انطلاق القطار الذي سيقلها إلى براغ، لأنها لم تكن تعرف أحداً هنا، و لم تكن ترغب أيضاً بالقيام بنزهة ترفيهية، فقد تبدلت المدينة خلال سنوات إلى درجة أن الأمكنة القديمة المألوفة أضحت تبدي لها اليوم وجهاً غريباً تماماً. لذلك لبت بامتنان دعوة الصديق القديم (نصف المنسي) الذي التقته للتو مصادفة: أتيح لها غسل يديها في الحمام، والجلوس على كرسي ناعم ومريح (كانت ساقاها تؤلمانها) ومعاينة الحجرة والإصغاء إلى صوت غليان الماء خلف الحاجز الذي يفصل زاوية المطبخ عن الشقة.

3

كان قد بلغ مؤخراً الخامسة والثلاثين من عمره وقد اكتشف فجأة أن شعره مبعثر بوضوح على قمة جمجمته. إنه ليس صلعاً بعد، لكنه ينذر به الآن (كان الشعر يفسح مجالاً لظهور الجلد): صار محتماً تماماً وآتياً عما قريب. من المثير للسخرية بالتأكيد افتعال مشكلة حيوية عن تساقط شعره، لكنه أدرك أن الصلع سيبدل وجهه وأن الحياة بأحد مظاهرها (الأفضل بوضوح) تدنو من نهايتها.

تساءل عندئذ عن الحساب الدقيق لتلك الشخصية (طويلة الشعر) التي تموت شيئاً فشيئاً، وعما عاشته تلك الشخصية بالضبط وأية أفراح عرفتها بالضبط، وتأكد بذهول أن أفراحه كانت أمراً تافهاً جداً، وشعر بالخجل في نفسه لا لشيء إلا لهذه الفكرة، أجل، شعر بالخجل: لأنه من المشين أن يقيم المرء فترة طويلة على هذه الأرض ويعيش قليلاً.

ماذا كان يعني بالضبط حين يقول بأنه عاش قليلاً؟ هل كان يفكر بالأسفار والعمل والحياة العامة والرياضة والنساء؟ حتماً يفكر بكل ذلك، لكنه يفكر بادئ ذي بدء في النساء، لأنه كان يتألم قليلاً من حياته الفقيرة في الميادين الأخرى، إلا أنه لم يستطع أن يعدَّ نفسه مذنباً في ذلك الفقر: فرغم كل شيء ليس خطأه إذا كانت مهنته دون منفعة مادية ودون أفق. ليس خطأه إذا لم يستطع السفر وهو لا يملك من أجل ذلك المال ولا تصريح قسم الموظفين. وليس خطأه إذا انكسر الغضروف العضلي في سن العشرين واضطره للتخلي عن الرياضة التي يحبها. أما الميدان الأنثوي فقد كان بالنسبة له مجال الحرية الخاصة، وفيه لم يكن بمقدوره التذرع بأي عذر. كان بمقدوره في

ذلك الميدان إظهــار مـن يكـون وإبراز تراثـه، فقـد أصبحـت النسـاء بالنسبة له المعيار الوحيد المؤكد لكثافته الحيوية.

لكنه ليس محظوظاً! لم ينجح ذلك أبداً من النسـاء: فقـد ظـل الخوف يشله حتى بلغ الخامسة والعشرين مع أنـه كـان فتـى وسـيماً، بعد ذلك وقع في الحب، فتزوج وسعى خلال سبع سنوات إلى إقنـاع نفسه بأنه يمكن للمرء أن يجد في إمرأة واحدة لا نهائية الإثارة الجنسية ثم طلّق، فأخلى تبرير أحادية الزواج (وهــم الإثـارة الجنسـية) المكـان للرغبة الوقحة والممتعة حيال النساء (المبرقشة بمهارة لوفرتهـن)، لكـن تلك الشهوة والجرأة كانتا، مع الأسف، مكبوحتين بشـدة مـن جـراء وضع مالي صعب (كان عليه أن يدفع نفقة شرعية إلى زوجته السـابقة عن طفل سُمِحَ له برؤيته مـرة أو مرتـين في العـام)، وبسـبب ظـروف الحياة في مدينة صغيرة كان فضول الجيران فيها غير محدود مثلما كـان اختيار النساء للإغواء مقيداً.

انقضى الزمن بعد ذلك بسرعة، وفجأة الفى نفسه أمـام المـرآة البيضوية المركزة فوق مغســلة الحمـام، ويمسك في يده اليمنـى مـرآة دائرية صغيرة فوق رأســه، وأخـذ ينظـر إلى صلعتـه الوليـدة مذهـولاً، فأدرك الحقيقة السخيفة على حين غرة (دون أي تمهيد): لن يسـترجع ما تركه يضيع. صار يعـاني منـذ ذلـك الحـين مـن مـزاج سـيئ دائـم وتراوده أفكار الانتحار. بالطبع (ولا بـد مـن لفـت الانتبـاه إلى ذلـك كي لا تحسبوه مصاباً بالهستيريا أو أحمق) كـان يعـي مـا تحتويـه تلـك الأفكار من جانب هزلي وأنه لـن ينفذهـا أبـداً (كـان يضحـك علـى نفسه لخاطر رسالة الوداع: *لن أقبل أبداً أن أصبح أصلع: الـوداع!*) لكن يكفي أن تلك الأفكار، بل الأفلاطونيـات، خطـرت علـى بالـه.

فلنحاول فهم ذلك: كانت تراوده هذه الأفكار تقريباً مثلما تراود عداء الماراثون الرغبة القاهرة في الانسحاب حين يتأكد في منتصف السباق أنه على وشك الخسارة (وفوق ذلك. بسبب هفواته). هو أيضاً كان يعدّ أنه خسر السباق، وليست لديه الرغبة بمتابعة الجري.

والآن، أخذ ينحني فوق الطاولة الصغيرة، ويضع فنجان قهوة أمام الأريكة (التي سيجلس عليها بعد ذلك) وفنجاناً آخر أمام المقعد المريح الذي جلست عليه الزائرة، وراح يقول لنفسه إن الدهاء الغريب للقدر جعله يصادف هذه المرأة التي عشقها فيما مضى بجنون والتي تركها تفر آنذاك (بسبب هفواته)، بالضبط حين صار يلفي نفسه في وضع نفسي سيئ وحين لم يعد بالإمكان استرجاع شيء.

4

لن تكتشف بالتأكيد أنها كانت في نظره ***المرأة التي تركها تفر***؛ كانت ما تزال طبعاً تتذكر الليلة التي أمضياها سوية، وتتذكر هيئته حينئذ (كان في سن العشرين، ولا يعرف كيف يرتدي ملابسه، ويشعر بالخجل ويسليها بتصرفاته المراهقة)، تتذكر أيضاً المرأة التي كانتها آنذاك (توشك على بلوغ الأربعين من عمرها ويقذفها ظمأ للجمال إلى أحضان مجهولين، لكنها تتخلى عنها في الحال؛ لأنها ظلت تفكر دوماً أنه يجب على حياتها أن تشبه رقصة ساحرة، وكانت تخشى أن تتحول خياناتها الزوجية إلى عادة مشينة).

أجل، كانت تلزم نفسها بالجمال كما يلزم آخرون أنفسهم بأمر أخلاقي؛ فلو اكتشفت القبح في حياتها، لاستسلمت لليأس. وبما

أنها كانت تدرك أنه لا بد لمضيفها من أن يجدها مسنة بعد خمسة عشر عاماً (مع كل القبح الذي ينطوي عليه ذلك)، فقد سارعت إلى بسط مروحة وهمية أمام وجهها، وغمرته بالأسئلة: كانت تريد معرفة كيف جاء إلى هذه المدينة؛ تسأله عن عمله؛ تمتدح شقته التي تجدها ظريفة بإطلالتها على سطوح المدينة (قالت بأنه ليس في تلك الإطلالة شيء غير مألوف طبعاً، لكنها تعطي إحساساً بالحرية)؛ ذَكَّرَتْ أسماء مقلدي بعض الصور المؤطرة للوحات الانطباعيين (لم يكن ذلك صعباً لأن الصور الرخيصة الثمن ذاتها توجد بالتأكيد عند معظم المثقفين التشيكيين المفلسين)، ثم نهضت وهي تمسك فنجانها بيدها، وانحنت فوق المكتب الصغير حيث كانت عدّة صور فوتوغرافية مرتبة في إطار (تأكدت أنه لا توجد صورة فوتوغرافية واحدة لامرأة شابة) وسألت إن كان وجه المرأة المسنة الذي يشاهد في إحدى تلك الصور هو وجه والدته (فوافق).

سألها بعد ذلك عن تلك الأعمال التي جاءت تنجزها كما أخبرته عند لقائهما. لم تكن لديها أي رغبة بالكلام عن المقبرة (إنها موجودة هنا، في الطابق الخامس من هذه العمارة، كالمعلقة فوق السطوح وكذلك يراودها، إحساس ممتع جداً، يعلو أيضاً فوق حياتها)، ولأنه أخذ يلح، انتهت إلى الاعتراف (لكن باختصار شديد، لأن الوقاحة الناجمة عن صراحة زائدة ظلت غريبة عنها) بأنها سكنت قديماً في هذه المدينة، وقد مضى على ذلك سنوات كثيرة، وأن زوجها دفن هنا (لم تذكر شيئاً عن اختفاء الضريح) وأنها كانت تأتي في كل السنوات إلى هنا مع ابنها في عيد القديسين.

5

"كل السنوات؟" أحزنه هذا الاعتراف، وفكّر من جديد في دهاء القدر؛ فلو أنه التقاها قبل ست سنوات عندما جاء للإقامة في هذه المدينة، لظل كل شيء ممكناً: لما كانت بعد متغضنة بالزمن إلى هذا الحد، ولما كانت مختلفة إلى هذا الحد عن صورة المرأة التي أحبها قبل خمسة عشر عاماً؛ ولحظي بالقدرة على تذليل الفرق والتقاط الصورتين (الصورة الحالية وصورة الماضي) كصورة واحدة. لكن الصورتين أصبحتا متباعدتين الآن بشدة.

شربت فنجان القهوة، وراحت تتكلم بينما أخذ يحاول أن يحدد بالضبط مدى هذا التحول الذي كانت بسببه على وشك أن تفرّ منه *للمرة الثانية*: الوجه متغضن (وهو ما تحاول طبقات عديدة من المسحوق التستر عليه دون جدوى)؛ العنق ذابل (وهو ما تسعى لإخفائه دون جدوى تحت قبة مرتفعة)؛ الوجنتان متهدلتان؛ أما الشعر فقد خطه الشيب (لكنه ظل جميلاً تقريباً؟). إلا أن ما جذبه أكثر هو اليدان (اللتان لم يفلح المسحوق ولا الحمرة بتجميلهما مع الأسف): كانت شبكة زرقاء من الأوردة التي تبرز عليهما مجسمة تكاد تصنع منهما يدي رجل.

بدأ الأسف يمتزج فيه بالغضب، فرغب بالكحول كي ينسى أن هذا اللقاء جاء متأخراً جداً، سألها إن كانت ترغب بالكونياك (لديه زجاجة مودعة في الخزانة خلف الحاجز)، فأجابته بالنفي وتذكر أنها لم تكن تشرب منذ خمسة عشر عاماً تقريباً، بالتأكيد مخافة أن يحرم الكحول لعبتها من الاعتدال الظريف. وحين شاهد إيماءة يدها الرشيقة التي

أشارت بها إلى رفض عرض الكونياك، أدرك أن هذا السحر الظريف وهذا الإغراء وهذا اللطف الذي فتنه لم يزل على حاله مع أنه توارى تحت قناع الزمن، و لم يزل أيضاً جذاباً حتى وراء السياج.

عندما قال لنفسه بأن هذا السياج هو ***سياج الزمن***، شعر حيالها بشفقة بالغة، وتلك الشفقة قربتها منه (هي المرأة الفاتنة قديماً، التي كانت تفقده النطق)، ورغب بالثرثرة معها مدة طويلة كصديق مع صديقه في جو أزرق خالٍ من الكآبة. لذلك أخذ يتكلم بتزلف، وألمح لتخلصه من أفكاره التشاؤمية التي كانت تزعجه منذ بعض الوقت. وطبعاً لم يذكر شيئاً عن صلعه الوليد (مثلما لم تذكر شيئاً عن الضريح المختفي)، وحولت رؤية الصلع القربان إلى عبارات شبه فلسفية بشأن الزمن الذي ينصرم بأسرع من أن يكون بمقدور الإنسان تعقبه، وبشأن الحياة الموسومة بحتمية التحلل، وإلى عبارات أخرى مماثلة، كان ينتظر من زائرته أن تردّ عليها بملاحظة حنونة، لكنه انتظر عبثاً.

"قالت بحدّة تقريباً: لا أحب كل هذه النقاشات، كل ما ذكرته سطحي على نحو مرعب".

6

لم تكن تحب أن يتكلم أحد عن الشيخوخة وعن الموت، لأنه في هذه الأحاديث توجد صورة القبح الجسدي الذي تنفر منه. ردّدت مراراً على مضيفها، بانفعال تقريباً، أن آراءه ***سطحية***، فالإنسان كما تزعم هو أكثر من جسده الذي يذوي، لأن الأساس هو عمل الإنسان، وما يتركه الإنسان للآخرين. لم تكن هذه حجة

جديدة من جانبها، فقد التجأت إليها منذ ثلاثين عاماً، حين هامت بزوج المستقبل الذي يكبرها بتسعة عشر عاماً. لم تكف أبداً عن احترامه بصدق (رغم كل خياناتها التي لم يكن يعرف شيئاً عنها أو التي لم يكن يريد أن يعرف شيئاً عنها)، وكانت تسعى لإقناع نفسها بأن ذكاء زوجها وسيرته يعوضان عن العبء الثقيل لسنواته.

أجاب بضحكة مريرة: "أي عمل أسألك عنه! أي عمل تريدين أن نتركه!".

لم تكن تريد الاستشهاد بالمرحوم زوجها، مع أنها مقتنعة بالقيمة المستمرة لكل ما أنجزه، لذلك اكتفت بالإجابة بأن كل إنسان في هذه الدنيا ينجز مهمته، مهما كانت متواضعة، وأن ذلك وحسب يعطيه قيمته. بدأت بالكلام عن نفسها بتحيز، عن عملها في ناد ثقافي في ضواحي براغ، عن الندوات والأمسيات الشعرية التي تنظمها فيه، وراحت تتكلم (بتشدق بدا له غير لائق) "عن الوجوه الممتنة للجمهور"، ثم قالت بأنه جميل أن لديها طفلاً وأنها تشاهد قسماته الخاصة تتبدل شيئاً فشيئاً (كان ابنها يشبهها) لتصبح وجه رجل، وأنه جميل أن تهبه كل ما يمكن لأم أن تهبه لابنها وأن تتلاشى بهدوء في آثار حياتها.

لم تكن مصادفة أنها أخذت بالكلام عن ابنها. كان حاضراً يومئذ في كل فكرة من أفكارها، وأخذ يلومها على إخفاقها في المقبرة، وهذا أمر غريب، فهي لم تسمح أبداً لرجل أن يفرض عليها إرادته، لكن ابنها كان يتسلط عليها دون أن تتوصل لمعرفة الطريقة. وإذا كان إخفاق المقبرة قد شوشها إلى هذا الحد، فلأنها على الأخص

تشعر أنها مذنبة أمامه وتخشى عتابه. كان ابنها يحرص بعناية فائقة على أن تحيي كما ينبغي ذكرى والده (فهو الذي يلح كل عام في عيد القديسين حتى لا ينسيا الذهاب إلى المقبرة!) وكانت تشتبه في ذلك منذ زمن طويل: فقد أملى حب الأب المتوفى هذا الهم أقل مما أملته الرغبة في اضطهاد الأم، والحفاظ عليها في الحدود الملائمة لأرملة، لأن الأمر كان على هذا النحو، مع أنه لم يفصح عن ذلك أبداً ومع أنها جاهدت (عبثاً) لتجاهله: كان ينفر من أمه لدى التفكير بأنه قد يكون لديها حياة جنسية وينظر باشمئزاز إلى كل ما يمكن أن يستمر من رغبتها الجنسية (حتى كافتراض) ولأن فكرة الجنس مرتبطة بفكرة الشباب، فقد كان ينظر إلى كل ما يمكن أن يستمر فيها من الشباب باشمئزاز، لم يعد طفلاً وكان شباب والدته (المقترن بعدوانية الاهتمام الأمومي)، يشكل حائلاً بينه وبين شباب الفتيات اللواتي بدأن باستمالته، كانت تلزمه أم مسنة لكي يستطيع احتمال حبها وليكون قادراً على حبها. ومع أنها أدركت أحياناً أنه يدفعها هكذا إلى القبر، فقد انتهت إلى الاستسلام له والخضوع لضغطه، وحتى تجميل هذا الضغط بالاقتناع أن جمال حياتها يصدر تماماً عن ذلك التلاشي الهادئ خلف حياة أخرى. وباسم هذا التجميل (الذي لولاه لظلت تغضنات وجهها تثيرها كثيراً)، راحت تساجل مضيفها بحماسة غير متوقعة.

لكن مضيفها انحنى فجأة على الطاولة المنخفضة التي تفصل بينهما، داعب يدها وقال: "اعذريني إذا تفوهت بالحماقات، فأنت تعلمين جيداً أنني كنت دائماً أحمق".

7

لم تغضبه مساجلتهما، بل على العكس تماماً، فالزائرة لم تنفك عن تأكيد هويتها في نظره: في الاحتجاج الذي رفعته ضد أحاديثه التشاؤمية (ولكن ألم يكن ذلك قبل كل شيء احتجاجاً ضد القبح والذوق الناشز؟) هاهو يلقاها كما عهدها، إذ لم تزل شخصيتها ومغامرتهما القديمة تشغلان تفكيره ولم يعد يرغب إلا بشيء واحد، ألا يأتي ما يعكر هذا الجو المزرق المناسب جداً للحديث (لهذا السبب داعب يدها ووصف نفسه بالأحمق) وأن يستطيع محادثتها عما يبدو له أساسياً الآن: مغامرتهما المشتركة؛ لأنه غدا مقتنعاً أنه عاش معها شيئاً ما غريباً تماماً لم تكن تدركه، ولذلك صار يترتب عليه أن يبحث ويجد بنفسه التعابير الدقيقة.

لم يعد يتذكر حتى كيف تعارفا، بالتأكيد كانت قد جاءت للانضمام إلى فريق من الأصدقاء الطلبة، ولكنه لم يزل يذكر الحانة الصغيرة البراغية الهادئة التي تواعدا على اللقاء فيها أول مرة: كان جالساً مقابلها في مقعد مفروش بالمخمل الأحمر، وكان متضايقاً وصامتاً، وفي الوقت نفسه منتشياً تماماً بالإيماءات اللطيفة التي تعبر بواسطتها عن أُنسها به. كان يحاول أن يتصور (على أي حال دون أن يتجرأ على تحقيق تلك الأحلام) كيف سيكون حالها إذا عانقها وعرّاها وأحبها، لكنه لم يفلح في ذلك. أجل. كان ذلك غريباً: حاول مراراً أن يتخيلها في الحب الجسدي لكن دون جدوى: ظل وجهها يتابع النظر إليه بالبسمة الهادئة اللطيفة نفسها، ولم يسعه

(حتى بالكد المتواصل للمخيلة) أن يشاهد عليه التكشيرة الغرامية المثيرة. *كانت تفرّ كلياً من مخيلته*.

لم تتكرر تلك الحالة قط في حياته: فقد ألفى نفسه في مواجهة *الغرابة*. كان قد عاش تلك الفترة الوجيزة جداً من الحياة (الفترة *الفردوسية*) التي لم تُشبّع فيها المخيلة بعد بالتجربة، ولم تصبح روتيناً والتي يعرف فيها المرء ويعلم القليل من الأمور بحيث تظل الغرابة موجودة؛ وحين تغدو الغرابة على وشك التحول إلى حقيقة (دون وساطة المتخيل، ودون جسر الصور) فإن المرء يصاب بالذعر والدوار. وبالفعل اعتراه الدوار حين لم يفلح بعد عدة لقاءات أخرى في التصميم على شيء، وبدأت تسأله بالتفصيل وبفضول مميز عن حجرة دراسته التي يشغلها في المدينة الجامعية، وهي تضطره تقريباً إلى دعوتها.

حجرة المدينة الجامعية التي يسكنها مع رفيق وعده مقابل ثمن قدح عرق، ألا يعود قبل منتصف الليل في ذلك المساء، لم تكن تشبه شقة اليوم: سريران معدنيان وخزانة ومصباح مبهر دون واقي، وفوضى رهيبة. رتّبَ الحجرة، وفي الساعة السابعة (كانت دقيقة دائماً، وكان ذلك جزءاً من لباقتها) طرقت الباب. إنه شهر أيلول والليل يحلُّ ببطء. جلسا على طرف السرير المعدني وأخذا يتعانقان. عمّ الظلام بعد ذلك أكثر فأكثر، ولم يرغب بإضاءة النور، لأنه كان سعيداً لعدم قدرتها على رؤيته، ويأمل أن تخفف العتمة من الضيق الذي لا بد أن يشعر به عندما سيخلع ملابسه أمامها (ولطالما كان يعرف بطريقة ما حَلَّ أزرار صدار النساء، فقد كان يتعرى من ملابسه أمامهن بتهور محتشم) لكنه في تلك المرة، تردد طويلاً قبل أن

يفك الزر الأول من قميصها (راح يقول لنفسه أنه يجب على حركة التعرية الأولى أن تكون حركة رشيقة ولطيفة خليقة بالرجال المجربين، وكان يخشى من افتضاح قلة خبرته) حتى أنها نهضت من تلقاء نفسها وسألته بابتسامة: "أليس الأجدر بي خلع هذا الدرع؟..." وبدأت تخلع ملابسها؛ لكن الظلام، كان طاغياً فلم ير إلا ظلال حركاتها. تعرى بسرعة ولم يشعر بالاطمئنان الأكيد إلا عندما بدآ (بفضل الصبر الذي أظهرته) يتضاجعان. راح ينظر إلى وجهها لكن دلالته كانت تفلت منه في الظلام، ولم ينجح حتى في تمييز قسماته. شعر بالأسف لعدم إضاءة النور، لكن بدا له من المستحيل أن ينهض الآن ويتجه نحو الباب ويوصل قاطع التيار؛ إذاً ظل يتعب عينيه دون جدوى: لم يكن يميزها؛ وكان يشعر بحب إمرأة أخرى؛ إنسانة مستعارة ومجردة ودون كيان.

جلست بعد ذلك فوقه (وحتى ذلك الحين، لم يشاهد منها إلا ظلها المنتصب) وقالت له، وهي تمايل وركيها، شيئاً ما مخنوق في تمتمة، إلا أنه كان من العسير عليه أن يعرف إن كانت تقول ذلك له أم لنفسها. لم يميز الكلمات وسألها عما تقوله. وظلت تهمس، وحتى عندما ضمها من جديد، لم يستطع فهم كلماتها.

8

راحت تصغي إلى مضيفها، وهي مفتونة أكثر فأكثر بالتفاصيل التي نسيتها منذ وقت طويل: فعلى سبيل المثال، ذلك الرداء الأزرق الغامق من نسيج الصيف الخفيف الذي كانت تشبه فيه، كما

يقول، ملاكاً مقدساً (أجل تتذكر ذلك الرداء) أو تلك الشكالة الثخينة المثلومة التي كانت تضعها في شعرها والتي تمنحها نبلاً مندرساً لسيدة نبيلة، أو تلك العادة التي كانت تلازمها في الحانة التي يتواعدان فيها، بطلبها دائماً شاي بقصب السكر (خطيئتها الكحولية الوحيدة) وكان كل ذلك يجرفها بمتعة، بعيداً عن المقبرة وعن الضريح المندثر، بعيداً عن ساقيها المتألمين وعن نادي الثقافة، وبعيداً عن عيني ابنها المعاتبتين. راحت تفكر، آه، رغم ما أنا عليه الآن، فإنني لم أعش عبثاً طالما أن القليل من شبابي لم يزل يعيش في ذاكرة هذا الرجل؛ وقالت لنفسها بعد ذلك بأن هذا تأكيد جديد لقناعتها: كل قيمة الكائن الإنساني تتوقف على تلك الصعوبة في التفوق على ذاته، في أن يكون خارج نفسه، أن يكون في الآخرين ولأجل الآخرين.

راحت تصغي إليه و لم تمانعه حين كان يداعب بين الفينة والأخرى يدها؛ كانت هذه الحركة تنسجم مع الجو الودّي للمحادثة، وينبعث منها غموض مهدئ (لمن يوجه هذه الحركة؟ للمرأة التي ***يتكلم عنها*** أم للمرأة التي ***يكلمها***؟)؛ وفضلاً عن ذلك لم يزل هذا الرجل الذي يداعبها يعجبها؛ أخذت تقول لنفسها بأنه يعجبها أكثر من الشاب الفتي منذ خمسة عشر عاماً الذي كانت رعونته، إن كانت ما تزال تتذكر ذلك جيداً، مضنية.

حين وصل في حكايته إلى اللحظة التي كان فيها شبحها المتحرك ينتصب فوقه، والتي كان يحاول فيها عبثاً تلقف كلماتها، صمت لبرهة فسألته برفق (بسذاجة، كأنه يعرف هذه الكلمات وكأنه يريد بعد سنوات كثيرة أن يذكرها لها كَسِيرٍ منسيٍّ): "وماذا كنت أقول؟"

9

أجاب: "لا أدري"، وفي الحقيقة لم يكن يعرف ذلك؛ فقد هربت آنذاك ليس فقط من خياله، بل ومن حواسه، من نظره كما من سمعه. عندما أشعل النور في حجرة المدينة الجامعية الصغيرة، كانت قد ارتدت ملابسها ثانية، وكان كل شيء عليها أملس من جديد، فاتناً براقاً وكاملاً، وراح يبحث عبثاً عن الرابطة بين هذا الوجه المضيء وذاك الوجه الذي كان يخمنه في الظلام قبل بضع لحظات. لم يكونا قد افترقا بعد في ذلك المساء، وبات الآن يسترد ذكراها: أخذ يرغم نفسه على تصور كيف كان وجهها (المستتر بالظلام) وجسدها (المستتر بالظلام) قبل لحظات، أثناء المضاجعة. عبثاً؛ كانت تهرب دائماً من خياله.

صمّم على أن يضاجعها المرة القادمة في النور. لكن لم توجد مرة قادمة. راحت تتجنبه بمهارة وتهذيب، وكان يستسلم للشك واليأس. لعلهما تضاجعا جيداً، لكنه يعرف أيضاً إلى أي مدى كان ذلك مستحيلاً آنفاً، وكان يخجله هذا؛ كان يشعر بنفسه مذنباً لأنها تتجنبه، ولم يعد يتجرأ على الإلحاح على لقائها.

"أخبريني، لماذا كنت تتجنبينني؟

– قالت بصوت أكثر رقة: أرجوك. مضى زمن طويل على ذلك. ما أدراني بالسبب؟" وبينما لم يزل يلح، قالت "لا ينبغي العودة دائماً إلى الماضي. ويكفي الآن أن يخصص المرء له قسطاً من الوقت على مضض، ذاك الماضي!" قالت هذا لتهدئ إلحاحه

قليلاً (وتلك العبارة الأخيرة الملفوظة بتنهيدة خفيفة، أعادتها بالتأكيد إلى زيارتها الأخيرة للمقبرة)، لكنه فسَّر تصريحها بطريقة أخرى: كان هذا التصريح يهدف لجعله يفهم فجأة وبتروٍ (هذا أمر واضح) أنه لا توجد إمرأتان (إمرأة اليوم والمرأة القديمة) بل إمرأة واحدة بعينها وأن تلك المرأة التي تهربت منه منذ خمسة عشر عاماً، أضحت الآن حاضرة هنا وفي متناول يده.

– قال بنبرة معبرة: "إنك محقة، الحاضر أهم" وحين قال ذلك، راح ينظر بإمعان إلى وجهها الباسم الذي تكشف شفتاه المنفرجتان عن صف أسنان؛ وفي تلك اللحظة ، خطرت على باله ذكرى: في ذلك المساء، في حجرة المدينة الجامعية الصغيرة، أمسكت أصابعه ووضعتها في فمها، عضتها بقوة حتى أنها آلمته، وفي تلك الأثناء، تحسس فمها برمته، ولم يزل يتذكر ذلك بوضوح؛ فمن أحد جوانبه كان ينقصه بعض الأسنان (لم ينزعج من هذا الاكتشاف عندئذ؛ بل على العكس، كان هذا العيب الصغير ينسجم مع عمر رفيقته، العمر الذي كان يستهويه ويستثيره) لكنه استطاع الآن، وهو ينظر في الشق الذي ينفتح بين الأسنان وزاوية الفم أن يتأكد أن الأسنان ناصعة البياض ولا ينقصها أي سن؛ وهذا ما أغاظه: عادت الصورتان للانفصال عن بعضهما مرة أخرى، لكنه لا يريد أن يقرّ بذلك، ويريد أن يجمعهما من جديد، بالقوة والإكراه، فقال: "ألا ترغبين حقاً بالكونياك؟" وفيما هي ترفض بابتسامة ساحرة وقد رفعت حاجبيها بلطف، انسحب إلى خلف الحاجز وأخرج زجاجة الكونياك، وأمالها نحو فمه وشرب بسرعة. قال لنفسه بعد ذلك إنها ستكتشف من تنفسه ما قام به في الخفاء لتوه. أخذ كأسين والزجاجة وحملهما إلى

الحجرة. هزت رأسها من جديد فقال: "على الأقل بشكل رمزي" وملأ الكأسين. صدم قدحه مع قدحها: "حتى لا أتكلم عنك بعد إلا في الحاضر!" أفرغ قدحه وبللت شفتيها، ثم جلس بجوارها على ذراع الكرسي وأمسك يديها.

10

لم تشتبه حين رافقته إلى شقته أن أي اتصال قد يحدث؛ وفي الحال اعتراها الذعر من ذلك، كأن هذا الاتصال حدث قبل أن تسنح لها فرصة التحضير له (***هذه الحالة من التحضير الدائم*** كما تعرفها المرأة الناضجة، كانت قد فقدتها منذ زمن طويل)؛ (قد يتبين المرء في ذلك الذعر أمراً ما مشتركاً مع ذُعْرِ المُراهِقَة التي قبلها للمرة الأولى لأنه إذا كانت المُراهِقَة غير مستعدة ***بعد*** وإذا كانت الزائرة ***لم تعد*** مستعدة، فإن عبارتي "لم تعد" و"بعد" مرتبطتان خفية كما ترتبط الشيخوخة والطفولة) أجلسها بعد ذلك على الأريكة وضمها إلى صدره وداعب جسدها كله، وصارت تشعر بنفسها هشة بين ذراعيه (أجل، هشة: لأن جسدها فقد منذ زمن طويل تلك الشبقية الجامحة التي كانت توصل إلى عضلاتها إيقاع التشنجات والارتخاءات ونشاط مئات الانعراجات العذبة).

لكن ذعر الوهلة الأولى تبدّد بسرعة تحت تأثير مداعباته، وأخذت هي، التي أصبحت بعيدة جداً عن المرأة الناضجة الجميلة التي كانتها سابقاً، تعود بسرعة تبعث على الدوار إلى ذلك الكائن المختفي في حساسيتها ووعيها وتستعيد الاطمئنان القديم لعاشقة

خبيرة، وبما أنها تشعر بهذا الاطمئنان منذ زمن طويل، فقد أصبحت تشعر به الآن بحدة أكثر من أي وقت مضى، فجسدها الذي كان، منذ برهة، مذهولاً ومذعوراً مستسلماً وليناً، صار يتحرك ويستجيب الآن لمداعباته الخاصة، وأصبحت تحسّ أن هذه المداعبات واضحة ومعروفة، فيغمرها ذلك بالغبطة، ولم تجد هذه المداعبات، والطريقة التي تضع بها وجهها على جسده، والحركات العذبة التي يستجيب بها نصف جسدها العلوي للعناق، لم تجدها كأمر معلوم، أمر كانت تعرفه وتنجزه الآن برضى فاتر، إنما وجدته كأمر ما ضروري لها، تمتزج معه في الثمل والإثارة، كأنها تعثر على قارتها الأليفة. (آه، قارة الجمال!) التي نفيت منها والتي تعود إليها باحتفالية.

أصبح ابنها الآن بعيداً للغاية، وعندما احتضنها مضيفها، لمحته يلومها في زاوية تفكيرها المتوارية، لكنه اختفى بسرعة فائقة، ولم يعد يوجد الآن على بعد مائة فرسخ من جميع الجهات إلا هي والرجل الذي يداعبها ويحتضنها. لكن كل شيء تبدل حين وضع فمه على فمها وأراد فتح شفتيها بلسانه: عادت إلى الواقع. كزت بشدة على أسنانها (صارت تشعر بطقم أسنانها الملتصق بفكيها، وبات لديها إحساس بأنه يملأ فمها) ثم دفعته برفق: "لا. حقاً. أرجوك. لا داعي".

وبينما راح يتابع إلحاحه، أمسكت معصميه وكررت رفضها، ثم قالت له (أخذت تتكلم بجهد، لكنها كانت تعرف أن عليها أن تتكلم إذا أرادت أن يطيعها) إن أوان التضاجع قد فات، وذكرته بعمرها الذي بلغته، قالت بأنهما إذا تضاجعا فلن يشعر حيالها إلا بالتقزز، وستكون حزينة من ذلك، لأن ما قاله لها عن مغامرتهما القديمة كان جميلاً ومهماً بالنسبة لها؛ لقد مات جسدها وذوى، إلا

أنها أصبحت تعرف الآن أنه بقي منه شيء ما روحي، شيء ما يشبه شعاعاً لم يزل يلتمع، حتى بعد انطفاء النجمة، وليس مهماً أن تشيخ مادام شبابها سليماً، ويظهر في كائن آخر. طفقت تقول للدفاع عن نفسها: "شيدتَ لي صرحاً في ذاكرتك. ليس بوسعنا السماح بتهديمه، افهمني. ليس لك الحق، بذلك".

11

أكّد لها بأنها لم تزل جميلة. وأنه لم يتغير شيء في الواقع، وأن المرء يبقى على حاله دائماً، لكنه يعرف أنه يكذب عليها وأنها محقة: يعرف حق المعرفة حساسيته المفرطة بخصوص الأمور الجسدية، والاشمئزاز الذي يتضح أكثر في كل عام، بات يشعر به حيال عيوب الجسد الأنثوي، ويدفعه أكثر فأكثر خلال هذه السنوات الأخيرة إلى مقربة من النساء الشابات الفارغات، كما كان يتبين بمرارة، والحمقاوات أكثر فأكثر، أجل، لم يكن بوسعه أن يجد أي شك في هذا الصدد: فلو أقنعها بالمضاجعة، لوجد في النتيجة التقزز، وذلك التقزز لا يمكنه أن يلطخ اللحظة الحالية وحسب، إنما صورة المرأة المحبوبة منذ زمن طويل، تلك الصورة التي لم يزل يحتفظ بها في ذاكرته كجوهرة.

كان يعرف كل ذلك، لكن كل ذلك لم يكن سوى أفكار، والأفكار لا تستطيع شيئاً حيال الإرادة التي لا تعرف إلا شيئاً واحداً: المرأة التي عذبته بعدم قابليتها للمس و عدم قابليتها للإمساك طوال خمسة عشر عاماً، تلك المرأة أصبحت حاضرة؛ هاهو يوشك أخيراً أن يراها في النور الساطع، يوشك أخيراً أن يقرأ جسدها القديم في جسدها اليوم،

وأن يقرأ وجهها القديم في وجهها اليوم، يوشك أخيراً أن يكتشف إيماءتها العاشقة الخارقة، وانقباضها العاشق الخارق.

عانق كتفيها ونظر في عينيها: "لا ترفضي، لا معنى للمقاومة".

12

لكنها هزت رأسها، لأنها تعرف أنه ليس من المحال على الإطلاق مقاومته؛ كانت تعرف الرجال وموقفهم حيال جسد المرأة، وتعرف أنه حتى المثالية الأكثر حماسة في الحب لا يمكنها أن تنتزع من سطح الجسد طاقته المخيفة؛ طبعاً، لم تزل تمتلك رشاقة مناسبة تماماً، حافظت على أبعادها الأولية، ولم تزل تمتلك مظهر الشباب تماماً، لا سيما عندما تكون مرتدية ملابسها، لكنها تعرف أنها بتعريها ستظهر تغضنات عنقها، وأنها ستعري جرحها الطويل، الناجم عن عملية في المعدة أجرتها قبل عشرة أعوام.

وكلما استعادت وعيها بمظهرها الجسدي الحالي الذي نسيته منذ بضع لحظات، راحت الهموم التي راودتها صباح هذا اليوم تصعد من أعماق الطريق حتى نافذة الشقة (التي اعتقدت أن علوها يكفي ليضعها في منأى عن حياتها) وتملأ الحجرة، وتستقر على اللوحات المؤطرة، وعلى الأريكة، وعلى الطاولة، وعلى فنجان القهوة الفارغ، وكان وجه ابنها يقود موكبها؛ فحين لمحته، احمرت وبحثت عن ملجأ في مكان ما من قرارة نفسها: كادت المجنونة التي كانتها تبتعد عن الطريق الذي رسمه لها والذي اتبعته حتى الآن بالابتسامة والكلمات الحماسية؛ ولما أرادت (حتى لبرهة قصيرة) الفرار، صار يترتب عليها أن تستأنف طريقها بوداعة

وتعترف بأنه الدرب الوحيد الذي يلائمها. كان وجه ابنها ساخراً مما جعلها تشعر في غمرة خجلها، أنها تزداد صغراً أمامه، حتى أنها لم تعد، وهي في أوج الذل، إلا الجرح الذي كان على معدتها.

أمسكها مضيفها من كتفيها وردّد قائلاً: "ليس ثمة معنى للمقاومة" فأخذت تهز رأسها، لكن بطريقة عفوية تماماً، لأن عينيها لم تشاهدا المضيف، إنما وجه الابن الغريم الذي كانت تزداد مقتاً له كلما شعرت بنفسها أصغر وأكثر ضعة. سمعته يلومها على الضريح المختفي، ومن تشوش ذاكرتها، وباحتقار لكل منطق، انبعثت هذه الجملة التي صرختها في وجهه بحنق: ***يجب على الأموات القدامى إخلاء المكان للأموات الجدد يا صغيري!***

13

لم يسعه بعد أن يشتبه بأن الأمر سيؤول إلى التقزز، لأن النظرة التي صار يوجهها إليها الآن (نظرة منقبة وثاقبة) لم تكن مستثناة من بعض التقزز، ولكن الأمر الغريب أن ذلك لم يضايقه، إنما آثاره وهيجه، كأنه يتمنى هذا التقزز: أخذت رغبة الجنس لديه تقترب من رغبة التقزز، وأخذت رغبته في أن يقرأ على جسدها ما اضطر إلى تجاهله منذ زمن طويل تمتزج برغبته في أن يلطخ على الفور السرّ المفضوح حديثاً.

من أين كانت تأتيه هذه الشهوة؟ إنها الفرصة الوحيدة التي تُقَدَّمْ له، سواء أدرك ذلك أم لم يدركه: فزائرته تجسد بالنسبة له كل ما لم ينله، وكل ما فرَّ منه، وكل ما كان غيابه يجعله لا يحتمل عمره

الآن مع شعره الذي بدأ يسقط وهذه النتيجة الفارغة المثيرة للشفقة؛ وهو الذي أدرك ذلك بوضوح أو اشتبه به بغموض، صار بوسعه الآن أن يَحْرِمَ من المعنى كل أفراحه التي حُرِمَ منها (والتي كانت ألوانها المثيرة تجعل حياته بلا لون على نحو مؤسف)، أصبح بوسعه اكتشاف أنها كانت ساحرة وأنها لم تكن إلا مظهراً وإخفاقاً، وأنها لم تكن إلا غباراً مثاراً، أصبح بوسعه الثأر منها وإذلالها والقضاء عليها.

أخذ يردّد وهو يرغم نفسه على جذبها إليه "لا تقاوميني".

14

لم تزل قسمات ابنها المازئة نصب عينيها وعندما جذبها مضيفها إليه بقوة، قالت: "اتركني لبرهة من فضلك" وهربت منه. كانت تخشى في الحقيقة، من قطع شريط أفكارها: يجب على الأموات القدامى إخلاء المكان للأموات الجدد والنصب لا تفيد بشيء، حتى ذلك النصب الذي رفعه الرجل الموجود إلى جوارها الآن في ذاكرته طيلة خمسة عشر عاماً لم يكن يفيد بشيء، أضحت كل النصب من أجل لا شيء، من أجل لا شيء. ذلك ما راحت تقوله لابنها في تفكيرها، وأخذت تنظر برضى ثأري إلى وجهه الذي ينقبض ويصرخ فيها: "لم تتكلمي أبداً يا أمي هكذا!" كانت تعرف حق المعرفة أنها لم تتكلم هكذا أبداً، لكنها غدت في هذه اللحظة مفعمة بنور يجعل كل شيء جلياً تماماً.

ليس لها الحق بإعطاء النصب الأفضلية على الحياة؛ فنصبها لم يعد له مبرر واحد للوجود: بوسعها تسخيره الآن لمتعة جسدها المحتقر، لأن

الرجل الجالس بجوارها يعجبها، إنه شاب، والأرجح (وحتى شبه مؤكد) أنه الرجل الأخير الذي يعجبها، والذي يمكنها الحصول عليه، وهذا وحده المهم، وإذا ألهمته بعد ذلك التقزز وهدمت نصبها في تفكيره، فستسخر من ذلك، لأن هذا النصب موجود خارج نفسها، كما توجد خارج نفسها ذاكرة ذاك الرجل وتفكيره، وليس مهماً ما يوجد خارج نفسها، "لم تتكلمي أبداً يا أمي هكذا!" سمعت تعجب ابنها، لكنها لم تعره انتباهاً. أخذت تبتسم.

قالت برقة: "إنك محق، لماذا سأقاوم!" ونهضت. ثم بدأت تحلُّ أزرار ثوبها بهدوء. لم يزل المساء بعيداً. هذه المرة كان الضياء يعم الحجرة.

*   *   *

إدوار والله

1

لنبدأ حكاية إدوار في المنزل الريفي لأخيه الأكبر، الذي كان متمدداً فوق الأريكة، ويقول لإدوار:

– بوسعك أن تمضي لتعثر على تلك المرأة المُسِنّة دون خسوف. إنها عاهرة على نحو مؤكد، غير أنني أعتقد أنه حتى هؤلاء الناس لديهم ضمير. ولأنها بالضبط قد لعبت دوراً قذراً ضدي فيما مضى، فقد يسرُّها الآن أن تسدي لك خدمة تكفيراً عن خطيئتها.

لم يزل شقيق إدوار على حاله: شخص طيب وكسول. ولا ريب أنه كان مستغرقاً على أريكته ــ كحاله الآن ــ في سقيفة الدراسة، قبل بضع سنوات من الآن. يوم وفاة ستالين، الذي قضاه في منزله متكاسلاً ومسترخياً، لم يكن إدوار إلا صبياً بعد. وفي اليوم التالي ذهب إلى الكلية دون أن يساوره شك بشيء، فأبصر إحدى صديقاته، الرفيقة سيشاكوفا، تقف مأخوذة وسط القاعة، في جمود مهيب، شبيهة بتمثال من الألم. دار حول الفتاة ثلاث دورات ثم أطلق قهقهة مجلجلة، فما كان من الفتاة المهانة إلا أن وصفت هذه الضحكة بالتحريض السياسي، فاضطر أخو إدوار إلى

هجر دراسته والمضي للعمل في إحدى القرى، حيث امتلك فيها منزلاً وكلباً وزوجة وطفلين، وحتى شاليهاً لقضاء أيام العطل.

وها هو الآن متمدد فوق أريكته، في هذا المنزل الريفي، ويشرح لإدوار قائلاً:

- كانوا يسمونها ذراع الطبقة العاملة المنتقم، لكن ينبغي ألا يخيفك هذا. إنها إمرأة ناضجة اليوم، ومازالت ضعيفة أمام الشباب، ولا تتمالك نفسها، ولهذا ستساعدك.

أصبح إدوار شاباً الآن، وقد أنهى لتوه دراسته في الكلية - وهي الكلية ذاتها التي طُرِدَ منها أخوه - وراح يبحث عن عمل. وفي اليوم التالي جاء يطرق مكتب المديرة، متّبعاً نصيحة أخيه. تبدت له إمرأة طويلة، عظامها بارزة، ذات شعر أسود كثيف، وعينين سوداوين، مع زغب أسود تحت أنفها، أعفاه هذا القبح من الرهبة التي طالما كابدها في يفاعته بحضور الجمال الأنثوي، حتى إنه استطاع أن يتحدث معها دون ارتباك، وبكل اللطافة والتودد المستحبين.

أسعدت هذه النبرة المديرة بشكل جلي، فأكّدت مراراً وبحماس شديد:

- نحن بحاجة إلى الشباب هنا.

ووعدت إدوار أن تدعم ترشيحه.

2

وهكذا أصبح إدوار معلماً في مدينة صغيرة من بوهيميا. لم يشعر بالتعاسة من ذلك، ولا بالسرور. كان يحاول دائماً أن يميز بين الجد واللاجد، فصنف مهنته كمعلم في فئة *اللاجد*، وهذا لا يعني أن مهنة

التدريس في حد ذاتها كانت بلا أهمية ـ فضلاً عن أنه كان شديد التعلق بها، لأنه ما كان ليستطيع أن يكسب قوته بوسائل أخرى ـ بل كان يظنها تافهة بالنسبة إلى ذاته. لم يخترها، بل فرضها عليه المطلب الاجتماعي، وتقديرات دائرة الموظفين، ومصدقات الثانوية، ونتائج مسابقة القبول. لقد انتقل بتأثير اتحاد هذه القوى – مثل رافعة تقذف كيساً فوق شاحنة ـ من الثانوية إلى الكلية، فسجّل فيها على مضض– كان إخفاق أخيه نذير شؤم – لكنه انتهى إلى التسليم بالأمر. أدرك مع ذلك، أن مهنته قد تكون في عداد مصادفات حياته، وأنها قد تلتصق ببشرته كما يلتصق شارب مستعار يحمل على الضحك.

لكن إذا كان الشيء ***الإلزامي*** هو شيء غير جدي (ويحمل على الضحك)، فالجدّية هي بلا شك الشيء الاختياري: صادف إدوار، في مقر إقامته الجديد، شابة وجدها جميلة. وبدأ يكرس نفسه لها بجدية شبه مخلصة. كانت تدعى أليس، وكانت متحفظة وفاضلة، وهذا ما استطاع حزنها أن يقنعه به منذ لقاءاتهما الأولى.

قام بمحاولات عديدة أثناء نزهاتهما المسائية، ليضمّ كتفيها، بحيث يلمس من الخلف طرف نهدها الأيمن، وفي كل مرة كانت تمسك يده وتبعدها بغضب. لكن إدوار لم يكفّ عن ذلك. وفي ذات مساء حاول أن يلمس نهدها فصدته بحدة، ثم توقفت وقالت:

– هل تؤمن با لله؟.

سمعت أذنا إدوار المرهفتان في هذا السؤال إصراراً خفياً، ونسي النهد على الفور.

– هل تؤمن با لله؟.

كرّرت أليس سؤالها، و لم يجرؤ إدوار على الإجابة. علينا ألا نلومه، لأنه لا يمتلك الشجاعة على الصراحة، فهو يشعر بأنه مهمل في هذه المدينة التي وَفَدَ حديثاً إليها، وكانت أليس تروقه كثيراً، حتى إنه خشي أن يفقد أنسها بإجابة بسيطة ووحيدة.

- سأل لكسب الوقت: وأنتِ؟

- قالت أليس: أنا، نعم.

وألحت عليه من جديد كي يجيبها.

لم تكن قد خطرت على باله فكرة الإيمان با لله حتى الآن، لكنه فهم أن عليه ألا يبوح بذلك، بل على العكس تماماً، عليه أن يغتنم الفرصة، ويجعل من إيمانه حصان طروادة الذي يمكنه من أن يختبئ في جوفه ـ حسب المثل القديم ـ لكي يندس بعد ذلك خفية في قلب الفتاة. غير أن إدوار لم يكن بمقدوره أن يقول لأليس بكل بساطة: «*أجل، أنا أؤمن با لله*»، فهو ليس وقحاً، ويخجل أن يكذب، وينفره الكذب الساذج غير المتقن. وإذا كان لا مفرَّ من الكذب، فعلى الأقل كان يريد أن يبقيه أكثر شبهاً بالحقيقة، فأجاب بصوت متأمل للغاية:

- لكن لا أدري يا أليس بمَ يجب أن أجيبك عن هذا السؤال. بالتأكيد أؤمن با لله، لكن...

صمت، فنظرت إليه أليس بعينين مندهشتين... وأضاف بعد قليل:

- لكنني أود أن أكون صريحاً معك تماماً، فهل يمكنني أن أكون صريحاً معك تماماً؟

- قالت أليس: لا بد من ذلك. فلولا الصراحة لما كان لدينا شيء نفعله سوية.

– حقاً؟

– قالت أليس: حقاً.

– قال إدوار بصوت خفيض: تراودني الشكوك أحياناً، فأتساءل إن كان الله موجود فعلاً، أم...!

– قالت أليس وهي تصرخ تقريباً: لكن كيف يسعك أن تشك بذلك؟.

سكت إدوار، وبعد لحظة تفكير خطرت على باله الحجة التقليدية فقال:

– حين أرى هذا القدر من البؤس حولي، أتساءل غالباً إن كان يمكن أن يوجد إله يسمح بكل هذا.

تكلم بصوت حزين جداً، حتى إن أليس امسكت يده وقالت:

– أجل، هذا صحيح، هنالك الكثير من البؤس هنا على الأرض. أعرف ذلك حق المعرفة. إلا أنه لهذا السبب بالضبط يجب الإيمان با لله. فلولاه لكان كل هذا الألم دون جدوى، ولما كان لأي شيء معنى، وفي هذه الحالة لما كان بوسعي أن أحيا بعد.

– قال إدوار بهيئة حالمة: ربما أنت محقة.

رافقها في الأحد التالي إلى الكنيسة. غمس أصابعه في جرن الماء المقدس، ورسم شارة الصليب. وحين حدث القدّاس رتّلوا ورتّل مع الآخرين أغنية دينية كان يتذكر لحنها على نحو غامض ومشوش، ويجهل كلماتها. لذلك قرر أن يستبدل الكلمات بأصوات متنوعة. أخذ يبدأ كل علامة متأخراً بجزء من الثانية لأنه لم يكن يعرف حتى هذا النغم. ولكنه عندما تأكد أنه يرتّل بشكل صحيح انغمس في الاستمتاع بترنيم

صوته، لأنه تبين لتوه، وللمرة الأولى في حياته، أن لديه صوتاً جهورياً جميلاً. بعدها رتّلوا "أبانا"، فركعت بعض السيدات المسنات. لم يستطع أن يقاوم التجربة، فركع هو أيضاً على البلاط. راح يرسم شارة الصليب بحركات مبالغة، وأثناء ذلك، أحس بشعور عجيب حين راودته فكرة أنه استطاع أن يفعل شيئاً لم يفعله أبداً من قبل، لم يكن يسعه أن يفعله في الشارع أو في أي مكان آخر، شعر أنه حرّ على نحو عجيب.

عندما انتهى كل شيء، نظرت إليه أليس بعينين متقدتين، وسألت:

– هل ما يزال بوسعك القول إنكَ تشكُّ في وجوده؟

– قال إدوار: لا.

– قالت أليس: أودّ أن أعلمك كيف تحبه كما أحبه.

جلسا على الدرجات العريضة للفناء، وروحه مفعمة بالمرح. ولسوء حظه، مرّت المديرة قربهما في تلك اللحظة بالذات، ورأتهما.

3

كان هذا مزعجاً. يجب عليّ في الواقع أن أذكر ـ لأجل أولئك الذين يوشكون على نسيان الخلفية التاريخية ـ أن الكنائس لم تكن ممنوعة آنذاك، بيد أن التردد عليها لم يكن رغم ذلك بلا خطر.

ليس من الصعب فهم هذا الأمر: فأولئك الذين قاتلوا في سبيل ما سموه الثورة، يحافظون على فخر فائق بها: *الفخر لأنهم كانوا في الجانب الملائم على خط الجبهة*.

بعد ذلك بعشر سنوات أو اثنتي عشرة ـ وهي تقريباً الفترة التي حدثت فيها قصتنا ـ بدأ خط الجبهة بالتلاشي – ومعه الجانب

ـ الملائم والسيىء لهذا الخط. لم يكن من المدهش إذاً أن يشعر أنصار الثـورة القدماء بالإحباط ويبحثوا بلهفة عن جبهـات *بديلـة*، وبفضل الذين يمكنهم – في دورهم كملحدين يناضلون ضـد المؤمنين ـ أن يجدوا أنفسهم من جديد في الجانب الملائم ويحافظوا بمغالاتهم المألوفة والأثيرة على رفعة شأنهم.

لكن، والحق يقال، كانت هـذه الجبهـة البديلة نعمة أيضاً على الآخرين، الذين كانت أليس منهم، ولعلـه ليس من السـابق لـلأوان إظهـار ذلك. فمثلمـا كـانت المديرة تريـد أن تكـون في الجانب *الملائم*، كانت أليس تريد أن تكون في الجـانب *المعارض*. لقد أُمِّمَ حانوت والدها خلال الأيام المسماة ثورية، وغدت أليس تكره أولئك الذين آذوه بهذه الطريقـة السيئة. لكـن كيف كـان يسعها أن تظهر حقدها؟ هل كان عليها أن تتناول سكيناً وتنطلـق لتثأر لوالدها؟ ليست هذه هي العـادة في بوهيميـا. وكـانت لـدى أليس وسيلة أفضل للتعبير عن معارضتها: بدأت تؤمن با لله.

وبهذه الطريقة، كان ا لله المعين يهبّ لنجدة الطرفين، وبفضلـه وقع إدوار بين نارين.

عندما جاءت المديرة في صبيحة يـوم الاثنين، وصـادفت إدوار في قاعة المدرسين، شعر بضيق شديد. في الحقيقة، لم يكن بمقدوره أن يلجأ إلى الجو الودّي لمحادثتهما الأولى، لأنـه منـذ ذلـك اليوم – عن سذاجة أو إهمال ـ لم يستأنف مطلقاً مجرى حديثهما اللطيف، لذلـك استطاعت المديرة أن تسأله على الملأ بابتسامة باردة:

– التقينا بالأمس، أليس كذلك؟.

– قال إدوار: أجل التقينا.

– تابعت المديرة قائلة:

لست أفهم كيف يمكن لشاب أن يذهب إلى الكنيسة؟.

هزّ إدوار كتفيه بهيئة متضايقة، فهزت المديرة رأسها وهي تقول:

– شاب؟.

– قال إدوار بأسلوب اعتذار: ذهبت لزيارة فناء الكاتدرائية الباروكي.

– قالت المديرة ساخرة: آه، هذا صحيح. لم أكن أعرف أنـك تهتم بفن العمارة.

لم يرق هذا الحديث لإدوار البتة، فتذكّر أن أخاه دار ثلاث مرات حول زميلته، ثم انطلق مقهقهاً قهقهات صاخبة. كان يبدو أن الأحداث المزعجة المألوفة تتكرر، فاعتراه الخوف. اتصل بأليس يوم السـبت ليعتـذر منها، وقال لها إنه لن يذهب إلى الكنيسة لأنه أصيب بالبرد.

– قالت له أليس بنـبرة عتـاب، عندمـا التقيـا في الأسـبوع التالي: إنك غض جداً.

راود إدوار شعور بأن كلمات الشابة تعوزها الدقـة. لذلـك راح يكلمها ـ على نحو غامض ومضطرب، لأنه خجـل أن يفصح عن خوفـه ومبرراتـه الحقيقيـة – عـن المضايقـات الـتي تعترضـه في المدرسة وعن المديرة المرعبة التي تضطهده دون سـبب. كـان يريـد أن يوقظ تعاطف أليس، لكنها قالت له:

– أما أنا، فربة عملي لطيفة جداً.

وأخذت تروي، وهي تضحك، طُرَفَـاً عن عملهـا. راح إدوار يصغي إلى ثرثرتها المرحة وهو يزداد كآبة.

4

آنساتي سادتي، إنها أسابيع ألم! كان إدوار يشعر بشهوة جامحة حيال أليس. كان جسدها يثيره، وكان هذا الجسد منيعاً تماماً، وكذلك كانت البيئة التي حدثت فيها لقاءاتهما مؤلمة: يتسكعان ساعة أو ساعتين على الطرق المعتمة، أو يذهبان إلى السينما؛ وكانت الرتابة والإمكانيات الغزلية الضئيلة لهذين البديلين (لم تكن توجد بدائل أخرى) تحثّ إدوار على الاعتقاد بأنه لو أتيح له لقاء أليس في بيئة أخرى، لربما أحرز نجاحات أكثر أهمية قربها. لذلك اقترح عليها بهيئة ساذجة أن تذهب معه لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في الريف، عند أخيه الذي يملك شاليهاً بجانب الماء في وادٍ مشجر.

صَوَّرَ لها بحماس الجمال الآسر للطبيعة، بيد أن أليس – التي لم تزل بسيطة وساذجة في ميادين أخرى - فهمت قصده من وراء ذلك، ورفضت بقسوة، لأنه ليست أليس فقط هي التي تقاوم، بل إله أليس شخصياً، الحذر والمتيقظ أبداً.

كان هذا الإله يستمد كل جوهره من فكرة وحيدة حيث لا شهوات أخرى لديه، ولا آراء أخرى أيضاً. يُحَرِّم العلاقات الجنسية خارج الزواج. لذلك فهو إله متشدد جداً، لكن علينا ألا نسخر من أليس بسبب هذا. فمن الوصايا العشر التي بلّغها موسى للبشر، هناك تسع منها بالضبط لم تكن تعرض روحها لأي خطر، لأنه لم تكن تراود أليس أية رغبة في القتل، أو تلويث شرف أبيها، أو الطمع بأزواج أقربائها؛ ثمة وصية وحيدة بدت أنها لا تسلّم بها وشكلت بالنتيجة تحدّياً حقيقياً: إنها الوصية السابعة،

المشهورة بـ "*لا تزن أبداً*" وكي تكمـل إيمانهـا الديني، وتظهـره، وتبرهن عليـه، كـانَ لا بـدّ لهـا مـن أن تركـز علـى تلـك الوصيـة بـالضبط، وعليهـا فحسـب، جـل اهتمامهـا. وعلـى هـذا النحـو، صنعت من إله غـامض وشـائع ومجـرد، إلهـاً محـدداً تمامـاً، واضحـاً ومحسوساً: *إله ضد الزاني*.

بيد أني سأطرح عليكم هذا السؤال، أين يبدأ الزنى بالضبط؟ لقـد أقامت كل إمرأة هذا الحد وفق معايير غامضة تماماً. كانت أليـس تسـمح لإدوار أن يقبلها بسرور، وبعـد محـاولات كثـيرة مـن جانبـه، انتهـت إلى السماح له بمداعبة نهديها، لكنها ظلت ترسم في وسط جسدها حدّ تخـم منيع ومتعذر العبور، وتحـت هـذا الحـد تمتـد منطقـة التحريمـات المقدسـة وترمت موسى، والغضب الإلهي.

بدأ إدوار يقرأ الكتاب المقـدس، ويـدرس المؤلفـات اللاهوتيـة؛ فقد قرّر مواجهة أليس بأسلحتها ذاتها. وذات مرة قال لها:

– عزيزتـي أليـس، لا شـيء محـرم علـى مـن يحـب الله. حـين نشتهي شيئاً، نشتهيه بفضله. لم يكن المسيح يتمنـى إلا أمـراً واحـداً، أن نهتدي بالحب.

– قالت أليس: بلا شك، لكن ليس الحب الذي تظنه.

– قال إدوار: لا يوجد إلا حب واحد.

– قالت أليس: هذا يلائمك، أليـس كذلـك؟ لكـن الله وضـع بعض الوصايا وعلينا أن نمتثل لها.

– قال إدوار: أجل، إله العهد القديم، وليس إله المسيحيين.

– ردّت أليس: كيف؟ الإله واحد.

– قال إدوار: أجل، لكن يهود العهد القديم لم يفهموا ذلك مثلنا بالضبط. قبل مجيء المسيح كان على الإنسان أن يمتثل قبل كل شيء لمجموعة من الشرائع والوصايا الإلهية، ولم يكن مهماً جداً ما يحدث في روحه. أما المسيح فقد اعتبر كل هذه التحريمات والأوامر بمثابة شيء خارجي. وما كان أكثر أهمية برأيه، هو الإنسان كما في قرارة نفسه. وابتداءً من اللحظة التي يدرك فيها الإنسان فضيلة وجوده الورع والمؤمن، فإن كل ما يفعله حسن ويعجب الله. لهذا السبب قال القديس بول: «كل شيء طاهر بالنسبة لأولئك الطاهرين».

– قالت أليس: بشرط أن يكونوا طاهرين.

– استطرد إدوار: القديس أوغسطين قال: أحِبّ الله وافعل ما تريد. أتفهمين يا أليس؟ أحِبّ الله وافعل ما تريد.

– أجابت أليس: لكن ما تريده ليس هو ما أريده.

أدرك إدوار أن هجومه اللاهوتي هذه المرة أخفق تماماً، لذلك قال:

– أنت لا تحبينني.

– قالت أليس بإيجاز شديد: بلى. ولهذا السبب لا أريد أن نقوم بشيء ينبغي علينا ألا نقوم به.

كما ذكرت سابقاً، كانت هذه الأسابيع أسابيع ألم. وكان الألم شديد الوطأة، لا سيما أن الشهوة التي يكنها إدوار لأليس ليست فقط شهوة جسد يشتهي جسداً آخر، على العكس فكلما صدّه هذا الجسد، أصبح حزيناً ومثيراً للعطف، وازدادت رغبته أيضاً بقلب الفتاة. بيد أن جسد أليس أو قلبها لم يهتما بحزنه، بل ظلا باردين ومنغلقين وراضين على نفسيهما.

أكثر ما كان يغيظ إدوار في أليس هو حذرها المتزن، مع أنه هو نفسه كان رزيناً جداً، وأخذ يحلم بعمل عظيم يستطيع به أن يخرج أليس من هذا الاتزان. ولما كان من الخطر جداً أن يثيرها عن طريق اعتداءات بواسطة السب والتجديف – اللذين تدفعه إليها طبيعته ـ فقد اضطر إلى اختيار تعديات مناهضة – أي أكثر صعوبة – تنبع من موقف أليس ذاته، إلا أنها كانت تصل بهذا الموقف إلى أقصاه بحيث تشعر بالخجل من تحفظها الفاتر. بمعنى آخر: أظهر إدوار ورعاً بالغاً. و لم يفوت أية مناسبة للذهاب إلى الكنيسة – كانت شهوته لأليس أقوى من خوفه من السأم –وشرع ينقاد إلى ذلك بخضوع غريب. كان يركع لأوهى سبب، بينما أليس تتلو صلواتها وترسم شارة الصليب واقفة إلى جانبه، لأنها كانت تخشى أن تنزلق جواربها.

ذات يوم لامها على فتور إيمانها. ذكّرها بكلمات المسيح: «أولئك الذين يقولون لي: ربي.. لن يدخلوا جميعاً إلى ملكوت السماوات». قال لها إن إيمانها شكلي وخارجي وهشّ. لامها على حياتها المريحة. لامها لأنها راضية جداً عن نفسها. لامها لأنها لا ترى شيئاً حولها إلا نفسها.

وفيما كان يتكلم – لم تتوقع أليس هذا الهجوم وراحت تدافع عن نفسها برخاوة – لمح تمثال المسيح المصلوب، وهو عبارة عن صليب برونزي قديم عليه مسيح من الصفيح الصدئ، ينتصب وسط الطريق. حرّر ذراعه بقسوة من ذراع أليس، وتوقف – كي يحتج على إهمال الشابة ويحدد بداية هجومه الجديد – ورسم شارة الصليب بمباهاة عدوانية. لكنه لم يستطع أن يتأكد من التأثير الذي أحدثته هذه الحركة على أليس، لأنه في تلك اللحظة بالذات، شاهد مستخدمة المدرسة على الرصيف الآخر وهي تنظر إليه، فأدرك إدوار أن أمره قد فُضح.

5

تأكّدت مخاوفه بعد يومين، عندما أوقفته المستخدمة في الممر وأخبرته بصوت جهوري وواضح أن عليه الحضور إلى مكتب المديرة ظهر اليوم التالي:

– نحن بحاجة لأن نتكلم معك أيها الرفيق.

شعر إدوار بالقلق. وفي المساء، توجه كعادته إلى موعده مع أليس، ليتسكع معها في الشوارع، إلا أنه تخلى عن ورعه الديني. كان محبطاً، ويريد أن يخبر أليس بما حدث له، بيد أن الشجاعة لم تسعفه، لأنه يعرف أنه في سبيل المحافظة على عمله غير المحبوب، والضروري سيخون الله بلا تردد. لذلك لم يقل شيئاً عن المحادثة المشؤومة. وبالمحصلة لم يسعه أن ينتظر أية كلمة عزاء. وفي اليوم التالي، دخل مكتب المديرة وهو يشعر بأنه وحيد تماماً.

كان أربعة قضاة ينتظرونه في الحجرة: المديرة، والمستخدمة، وزميل إدوار ـ رجل قصير ويضع نظارات – وسيد أشيب لم يكن إدوار يعرفه. كان الآخرون ينادونه الرفيق المفتش.

دعت المديرة إدوار إلى الجلوس، وقالت له بعد ذلك إنهم استدعوه إلى محادثة في منتهى الودية وشبه رسمية، لأن جميع الرفاق مهتمون للغاية بالطريقة التي يتصرف بها إدوار خارج المدرسة. وفيما هي تقول ذلك، راحت تنظر إلى المفتش، والمفتش يهز رأسه بحركة موافقة. ثم التفتت إلى المدرس ذي النظارات الذي لم يكفّ عن النظر إليها بانتباه طوال ذلك الوقت، والذي ما إن فهم نظرتها حتى بدأ خطاباً مسهباً:

– إننا نريد أن نربي شبيبة سليمة ومنزهة عن الأحكام المسبقة،

وإننا مسؤولون عن هذه الشبيبة لأننا نحن – المدرّسون – بمثابة القدوة لها؛ لهذا السبب لا يمكننا أن نتسامح بوجود متدينين بيننا.

وعرض عرضاً مفصلاً هذه الفكرة. وانتهى إلى الإعلان بأن موقف إدوار هو فضيحة لكل المؤسسة.

قبل بضع دقائق، كان إدوار واثقاً من أنه سينكر إلهه المكتشف حديثاً، وسيعترف بأن زيارته للكنيسة، ورسمه شارة الصليب على الملأ، لم تكن سوى تهريج. لكنه شعر الآن، وهو يرى الوضع أمامه، أنه من المستحيل أن يعترف بالحقيقة؛ وعلى كل حال، لن يسعه أن يقول لهذه الشخصيات الأربع، الرصينة جداً، والمتحمسة أشد الحماس، إنها تشغل نفسها عن سوء فهم وحماقة. أدرك أنه إذا قال لهم ذلك، فلن يقوله إلا استهزاءً من حديثهم، وأدرك أيضاً أن هؤلاء الناس لا ينتظرون منه سوى أعذار واعتذارات، وأنهم مستعدون لرفضها. وأدرك بومضة ـ لأنه لم يكن لديه وقت للتفكير ـ أن الأكثر أهمية بالنسبة له، في هذه اللحظة، هو أن يبقى شبيهاً بالحقيقة، أو بدقة أكثر، شبيهاً بالفكرة التي صنعها هؤلاء الناس عنه؛ وإذا أراد تصحيح هذه الفكرة إلى حد ما، فعليه أيضاً الإقرار بها إلى حد ما.

– قال: أيها الرفاق، هل يمكنني أن أتكلم بصراحة؟

– قالت المديرة: طبعاً. لأجل هذا أنت هنا.

– ولن تحقدوا عليّ؟

– ردّت المديرة: قل ما لديك.

– قال إدوار: حسن، سأعترف لكم بكل شيء. إنني أؤمن با لله حقاً.

رفع عينيه صَوْبَ قضاته، واستطاع أن يتأكد أنهم يبدون ارتياحهم التام؛ وحدها المستخدمة صاحت به:

– اليوم أيها الرفيق؟ في عصرنا؟.

– تابع إدوار قائلاً: كنت أعرف أنكم ستغضبون إذا قلت لكم الحقيقة. لكنني لا أعرف الكذب. لا تطلبوا مني أن أروي لكم أكاذيب.

– قالت له المديرة برفق: لا أحد يطلب منك أن تكذب. إنك محق في قولك الحقيقة. لكن ما أريده هو أن تشرح لي كيف يمكن لشاب مثلك أن يؤمن با لله!.

– زَايَدَ المدرس وهو مهتاج جداً: اليوم في هذا الوقت الذي نطلق فيه الصواريخ إلى القمر!!!.

– قال إدوار: لا حيلة لي في ذلك. لا أريد أن أؤمن با لله. حقاً لا أريد.

تدخل السيد ذو الشعر الأشيب بنبرة فائقة اللطف: كيف لا تريد وتؤمن؟.

– كرّر إدوار اعترافه بصوت خفيض: لا أريد الإيمان وأؤمن.

ضحك المدرس ذو النظارات وقال:

– لكن ثمة تناقض في ذلك!.

– قال إدوار: أيها الرفاق، إنني أخبركم بالأمور كما هي. أعرف حق المعرفة أن الإيمان با لله يبعدنا عن الواقع. ماذا سيحدث للاشتراكية لو آمن كل الناس بأن الكون خاضع لسلطة ا لله؟ لن يفعل أحد شيئاً، وسيفوض كل إنسان أمره إلى ا لله.

– أيّدت المديرة قائلة: هذا صحيح تماماً.

- أكّد المدرس ذو النظارات: لم يبرهن أحد قط على وجود ا لله.

- استطرد إدوار: الفرق بين تاريخ البشرية وما قبل تاريخها، هو أن الإنسان تحمل مسؤولية مصيره، و لم يعد بحاجة إلى ا لله.

- قالت المديرة: الإيمان با لله يقود إلى القدرية.

- قال إدوار: الإيمان با لله هو بقية من القرون الوسطى.

بعد ذلك قالت المديرة من جديد شيئاً، ثم المدرّس، ثم إدوار، ثم المفتش. كانت هذه الأفكار تتكامل بانسجام، بحيث أن المدرّس ذو النظارات لم يعد يتمالك نفسه فبادر إلى مقاطعة إدوار:

- إذن، لماذا ترسم شارة الصليب في الشارع، ما دمت تعرف كل هذا؟.

حَدَجَهُ إدوار بنظرة حزينة للغاية، وقال:

- لأنني أؤمن با لله.

- كرّر المدرّس ذو النظارات مبتهجاً: لكن ثمة تناقض في ذلك!

- قال إدوار: أجل، ثمة تناقض بين المعرفة والإيمان. أعرف أن الإيمان با لله يفضي إلى الظلامية، وأعرف أنه من الأفضل ألا يوجد ا لله، لكن ماذا يعني أن أفعل عندما أشعر هنا، في قرارة نفسي - أشار بإصبعه إلى قلبه، وهو يقول ذلك - أنه موجود؟ أرجوكم أيها الرفاق، افهموني! فأنا أخبركم بالأمور كما هي، والأفضل أن أقول لكم الحقيقة؛ لا أريد أن أكون منافقاً، أريدكم أن تعرفوني كما أنا في الحقيقة.

طأطأ إدوار رأسه. كان المدرّس قصير النظر، فلم يكن يعرف أنه حتى الثوري الأشد قسوة لا يرى في الضعف إلا ضرورة سيئة، بينما فضيلة الثورة هي إعادة التربية. وهذا المدرّس نفسه، الذي اهتدى إلى العقيدة الثورية بين ليلة وضحاها، لم يشعر أبداً باحترام تجاه المديرة، و لم يخطر بباله أن إدوار الذي وضع نفسه تحت تصرف قضاته كموضوع شائك لكنه قابل لإعادة التربية، هو الآن أفضل منه بألف مرة. ولأن ذلك لم يخطر بباله، انصرف إلى هجوم عنيف ضد إدوار، مؤكداً أن الرجال مثله، الذين لا يستطيعون أن يرفضوا الإيمان القروسطي، هم رجال من القرون الوسطى، ولا مكان لهم في مدرسة حديثة. تركته المديرة ينهي كلامه وقالت منبهة:

– لا أحب أن نقطع الرؤوس. كان الرفيق صادقاً وقال لنا الحقيقة، وهذا أمر علينا أن نحسب حسابه ـ التفتت نحو إدوار ـ الرفاق طبعاً محقون في قولهم بأنه لا يمكن لمتدين أن يربي شبيبتنا، لذلك أخبرني بنفسك بالذي تقترحه.

– قال إدوار بهيئة يائسة: لا أدري، أيها الرفاق. لا أدري.

– قال المفتش: هذا ما أفكر به، لا يحدث الصراع بين القديم والجديد بين الطبقات فقط، بل وفي داخل كل فرد، وهذا ما نشهده في هذه المعركة لدى الرفيق. إنه يعرف، لكن عواطفه تسحبه إلى الخلف. علينا أن نساعد الرفيق كي يتغلب عقله عليها.

وافقت المديرة، ثم قالت:

– حسن جداً، سأهتم به شخصياً.

6

نجح إدوار في إبعاد الخطر المباشر، وبات مستقبل مهنته كمدرّس بين يدي المديرة حصراً، وهذا ما تأكد منه بارتياح في نهاية المطاف.

تذكر في الحقيقة ملاحظة أخيه الذي قال له إن المديرة لم تزل تميل للشبان، فقرر رغم كل تقلبات يقينه الشبابي، المفرط في يوم، والمقوض بالشك في اليوم التالي، أن يخرج منتصراً من المحنة، وأن يكسب حظوة سيدته بوصفه رجلاً.

عندما ذهب إلى مكتب المديرة بعد عدة أيام كما هو مقرر، حاول أن يتكلم بنبرة مرحة، ولم يضيع أية فرصة ليدسّ في الحديث تعليقاً ودوداً أو مديحاً لطيفاً أو أن يشدّد بتلميحات غامضة على فرادة حالته: حالة رجل تحت رحمة إمرأة. لكن لم يتح له أن يختار بنفسه نبرة المحادثة. كلّمته المديرة بلطف لكن بمنتهى التحفظ، فسألته عن الكتب التي يقرؤها، وحددت هي نفسها عناوين كتب عديدة، وأوصته بقراءتها، لأنها كانت ترغب بوضوح أن تبدأ عملاً طويل النَفَسِ على ذهنه، وفي النهاية دعته لزيارتها في منزلها.

تغلب هذا التحفظ على اطمئنان إدوار المصطنع، فدلف إلى شقة المديرة منكساً رأسه ودون أية نية كي يغريها بسحره الرجولي. أجلسته على الأريكة وبدأت الحديث بنبرة ودّية جداً، فسألته عما يرغب:

– ربما بفنجان قهوة؟.

فأجاب بالنفي.

– كحول إذن؟.

فشعر بالضيق وقال:

- إذا كان لديك كونياك.

وخشي على الفور أن يكون قد قال شيئاً غير لائق. لكن المديرة أجابت بلطف:

- لا، ليس لدي كونياك، كل ما لدي قليل من الخمر...

وأحضرت زجاجة مليئة حتى منتصفها، وبما يكفي لملء كأسين بالضبط.

ومن ثم أوضحت لإدوار أنه ينبغي عليه ألا يعتبرها كمحقق، وأنه يحق لكل إنسان بالطبع، أن يعتنق المعتقدات التي يحسب أنها صحيحة. ومن حقهم بداهة - أضافت على الفور - أن يتساءلوا هل سيشغل شخص آخر مكانه في التدريس أم لا؟ ولهذا السبب رأوا من واجبهم دعوة إدوار - ولو على مضض - ومناقشته. وقد ارتاحوا كثيراً - هي والمفتش على أية حال - لأنه كلّمهم بصراحة ولم يحاول إنكار شيء. كانت قد تكلمت لفترة طويلة بعد ذلك مع المفتش عن إدوار؟ وقرروا دعوته بعد ستة أشهر إلى محادثة جديدة، ومن الآن حتى ذلك الحين، صار على المديرة أن تيسّر تطوره بتأثيرها عليه. وشددت مجدداً على أن المساعدة التي تريد أن تقدمها لا يمكن أن تكون إلا "*مساعدة ودية*" وأنها ليست محققاً ولا شرطياً. تحدثت بعد ذلك عن المدرّس الذي هاجم إدوار وقالت بقسوة:

- لديه متاعب هو الآخر، ومن دواعي سروره أن يتصيد الآخرين، كما أن المستخدمة روت في كل مكان أنك كنت وقحاً، وأنك بقيت مصراً على مواقفك، وهي تعتقد بأنه ينبغي طردك من المدرسة، وليس من وسيلة لحملها على تعديل رأيها. بالطبع، أنا لا أتفق معها، إلا أنه لا بد لي من أن أتفهم موقفها. ومن جهة أخرى،

فأنا أيضاً لا يروق لي كثيراً أن أعهد بأطفالي إلى معلم يرسم شارة الصليب على الملأ في الطريق..

بهذه الطريقة، راحت المديرة تشرح لإدوار، بسيل متواصل من الجمل، حدود تسامحها المغرية تارة، وحدود قسوتها المتوعدة تارة أخرى. وبعد ذلك، وكي تثبت أن لقاءهما هو لقاء ودي حقيقة، انتقلت إلى مواضيع أخرى: تكلمت عن الكتب، واصطحبت إدوار إلى المكتبة، وتحدثت طويلاً عن ***الروح المغتبطة لرومان رولان***، وأغضبها أنه لم يقرأه. ثم سألته إن كانت المدرسة تعجبه. وبعد إجابة تقليدية، أخذت تتكلم بذلاقة لسان: قالت إنها كانت عارفة بمستقبل مهنتها، وأنها تحب عملها في المدرسة، لأنها بتعليمها الأطفال تحافظ على تماس صحيح ودائم مع المستقبل؛ ولأن المستقبل وحده يمكنه في نهاية المطاف أن يسوغ كل المعاناة الموجودة بوفرة من حولنا.

– قال: لا... أجل، لا بد من الاعتراف بذلك.

– قالت: لو لم أكن أعتقد أنني أعيش في سبيل شيء أعظم من حياتي الخاصة، لكنت بلا شك غير قادرة على الحياة.

وهي تتفوه بهذه الكلمات، بدت فجأة في غاية الصدق، ولم يتبين إدوار بوضوح إن كانت ترمي من وراء ذلك إلى أن تعترف أو أن تباشر مناظرة إيديولوجية حول معنى الحياة، فآثر أن يرى في هذه الكلمات تلميحاً شخصياً، وسأل بصوت مخنوق ورصين:

– وحياتك في ذاتها؟.

– كررت المديرة: حياتي؟.

– أجل حياتك. ألا يسعها أن ترضيك؟.

ارتسمت ابتسامة مريرة على وجه المديرة، وكاد إدوار يشفق عليها. كان قبحها مؤثراً؛ فالشعر الأسود يؤطر الوجه المتطاول ذي العظام البارزة والمزغب الأسود تحت الأنف بروز شارب. أدرك فجأة سبب حزن حياتها برمته، ورأى القسمات التي تبدي شبقاً جامحاً. ورأى في الوقت ذاته القبح الذي يبدي استحالة إرواء هذا الجموح. راح يتخيلها كيف تحولت من الذهول إلى تمثال حي من الألم يوم موت ستالين، وكيف شهدت آلاف الاجتماعات بافتتان، وكيف ناضلت ضد يسوع البائس بحماس، وأدرك أن كل ذلك لم يكن سوى قناة تصريف متواضعة لشهوتها التي لم يكن بمقدورها أن تجري كما تشاء. كان إدوار فتياً ولم يستنفذ قدرته على التعاطف بعد. أخذ ينظر إلى المديرة بتفهم. لكنها شعرت بالخجل من صمتها اللاإرادي، فقالت بصوت أرادته مرحاً:

– على كل حال، المشكلة ليست هنا يا إدوار. لا يعيش المرء من أجل نفسه. يعيش دوماً من أجل شيء آخر.

حدّقت في عينيه بمنتهى العمق ثم أضافت:

– لكن القضية هي أن يعرف لأجل ماذا. أهو لأجل شيء واقعي أم خيالي؟ الله هو فكرة جميلة، بيد أن مستقبل الإنسان يا إدوار هو شيء واقعي، وفي سبيل هذا الواقع عشت وضحيت بكل شيء.

تفوهت هذه العبارات بمنتهى الثقة أيضاً إلى درجة أن إدوار ما انفك يحس بهذا الشعور المتفهم والمباغت الذي استيقظ فيه قبل لحظات، وبدا له من الحماقة أن يكذب بصفاقة على أي إنسان، وظن أن المظهر الحميمي جداً الذي اتخذته المحادثة منحه أخيراً الفرصة للتخلي عن خداعه غير اللائق ـ وفضلاً عن ذلك الصعب ـ فسارع إلى التأكيد قائلاً:

- لكنني متفق معك تماماً. أنا أيضاً أفضل الواقع. أنت تعلمين أنه ينبغي ألا تأخذي إيماني على محمل الجد!.

بيد أنه اكتشف في الحال أن عليه ألا يدع نفسه يخطئ أبداً بسبب تقلب المشاعر المفاجئ. راحت المديرة تنظر إليه بهيئة مندهشة، وقالت ببرود ظاهر:

- لا تنافق. ما أعجبني هو صراحتك. وها أنت الآن تحاول أن تتظاهر بما لا تكونه.

لا، لم يكن مسموحاً لإدوار أن يتخلص من القناع الديني الذي ارتداه من قبل، فخضع بسرعة وأرغم نفسه أن يمحو الانطباع السيء الذي أعطاه للتو:

- لكن لا، لم أكن أريد أن أتهرب. بالتأكيد، أؤمن با لله، ولا يمكنني أن أنكر ذلك البتة. كنت أريد فقط أن أقول إنني أؤمن كذلك بمستقبل البشرية والتقدم وما إلى ذلك. لو لم أكن أؤمن بكل هذا، فما نفع عملي كمدرّس، وما جدوى أن يولد الأطفال، وما جدوى كل حياتنا؟ وبالضبط، كنت أفكر أن تطور المجتمع هو أيضاً مشيئة الله. كنت أفكر أنه يمكن أن نؤمن با لله والشيوعية في آن معاً، وأن كليهما متوافقان.

- قالت المديرة بسطوة أمومية تماماً: لا. الأمران ليسا متوافقين.

- قال إدوار بحزن: أعرف. ينبغي ألا تلوميني.

- لست ألومك. أنت ما تزال شاباً وتتمسك بعناد بما تعتقده. لا يمكن لأحد أن يفهمك مثلي. أنا أيضاً كنت شابة مثلك وأعرف ماذا يعني الشباب. وشبابك هو بالضبط ما يعجبني فيك. إنك تجذبني.

حانت اللحظة أخيراً، وآن الأوان. إنها اللحظة المناسبة تماماً. (هذه اللحظة المناسبة كما تلاحظونها، لم يخترها إدوار، بل إن هذه اللحظة هي التي اختارت إدوار لتتحقق). عندما قالت المديرة إنها تجده جذاباً، أجاب بصوت معبر قليلاً:

- أنت أيضاً، أنت تجذبينني.

- حقاً؟.

- أجل.

- ردّت المديرة: دعك من هذا! إمرأة عجوز مثلي...

- لم يستطع إدوار إلا أن يجيب: هذا ليس صحيحاً.

- قالت المديرة: بلى صحيح.

- لم يتمالك إدوار نفسه من أن يجيب باندفاع كبير: لستِ عجوزاً البتة. من الحماقة أن تقولي هذا.

- أتظن ذلك؟.

- بالتأكيد، فأنتِ تعجبينني كثيراً.

- لا تكذب. أنت تعرف أنه يجب عليك ألا تكذب.

- أنا لا أكذب. أنت جميلة.

- سألت المديرة بتكشيرة متشكّكة: جميلة؟.

- قال إدوار: أجل، جميلة.

وبما أنه كان يخشى التكذيب الفظ لهذا التأكيد، بادر إلى تدعيمه بالبراهين:

- السمراوات مثلك يعجبنني.

- استفهمت المديرة: هل تحب السمراوات؟.

- قال إدوار: بجنون.

وكيف حدث أنك لم تأت لرؤيتي طوال فترة وجودك في المدرسة؟ كنت أشعر أنك تتجنبني.

- قال إدوار: كنت متردداً. كان الجميع سيقولون إنني أتملقك. ولن يصدق أحد أنني آتي فقط لأراك، لأنك تعجبينني.

- قالت المديرة: لم يعد هناك شيء تخشاه حالياً. قرروا الآن أن علينا أن نلتقي من حين لآخر.

راحت تنعم النظر في عينيه بقزحيتين بنيتين واسعتين (علينا أن نعرف أنهما لم تكونا من دون جمال). وحين ودّعها، داعبت يده بلطف، بحيث أن هذا الطائش غادرها وهو مفعم بشعور الانتصار.

7

كان إدوار متأكداً من أن القضية الشائكة تسير في صالحه. وفي يوم الأحد التالي توجّه إلى الكنيسة بصحبة أليس وهو بحالة مرح فاضح؛ بالأحرى استرد كل ثقته، لأن زيارته إلى منزل المديرة (حتى لو لم تثر هذه الفكرة فينا سوى ابتسامة مشفقة) زوّدته ببرهان ساطع على سحره الرجولي بالمقارنة مع ما مضى.

من جهة أخرى، بعد أن وصل إلى الكنيسة في ذلك الأحد، اكتشف أن أليس تغيرت: حين أصبحا سوية، تأبطت ذراعه، ولم تعد تتركها ثانية، حتى في الكنيسة. كانت عادة تبدي حشمتها وتحفظها،

غير أنها يومئذ أخذت تتلفت إلى جميع الاتجاهات وأومأت برأسها، وهي تبتسم لحوالي عشرة أشخاص من الأصدقاء والمعارف.

وكان هذا أمراً غريباً لإدوار، ولم يفهم منه شيئاً.

بعد يومين، وبينما هما يتنزهان في الشوارع المظلمة، اكتشف إدوار بدهشة أن قبلات أليس، المبتذلة عادة والفاترة، أصبحت فجأة رطبة ودافئة ومتحمسة. وعندما توقف معها مقابل مرآة عاكسة، شاهد عينين عاشقتين تنظران إليه. فقالت له أليس على حين غرة:

– أحبك. إن كنت تود أن تعرف ذلك.

أدهشه ما سمع، فحاول أن يقول شيئاً لكنها أرغمته على الصمت في الحال.

– لا، لا، لا تقل شيئاً. أشعر بالخجل من نفسي. لا أريد أن أسمع شيئاً.

ساروا بضع خطوات أخرى، ثم توقفا وقالت أليس:

ـ فهمت كل شيء، الآن. فهمت لماذا كنت تلومني على فتوري.

لكن إدوار لم يفهم شيئاً، وآثر الصمت. سارا بضع خطوات أخرى، فأضافت أليس:

– لم تخبرني بشيء. لماذا لم تخبرني بشيء؟.

– سأل إدوار: وماذا كنت تريدين أن أقول لك؟.

– قالت بحماس هادئ: أجل، هذا هو أنت بالضبط. غيرك كان سيتبجح، أما أنت فلزمت الصمت. لكنني لهذا بالتحديد أحبك.

بدأ إدوار يفهم، ومع ذلك سأل:

– عم تتكلمين؟.

– عن الذي حدث لك.

– وكيف حدث أن عرفت؟.

– دعك من هذا! الجميع يعرف. لقد استدعوك وهددوك، فاستهزأت بهم. لم تنكر شيئاً. الجميع معجبون بك.

– لكنني لم أتكلم إلى أحد بأي شيء.

– لا تكن ساذجاً. أمر كهذا، يفصح عن نفسه بنفسه. فهو رغم كل شيء ليس أمراً تافهاً. أتظن أنه ما يزال يوجد اليوم شخص لديه شيء من الشجاعة؟.

كان إدوار يعرف أن أقلّ حَدَثٍ في مدينة صغيرة سرعان ما يتحول إلى أسطورة، لكن لم يخطر بباله أن أسطورة قد تولد حتى من مغامراته الخاصة الساخرة، التي لم يبالغ في تقدير أهميتها. ولم يكن يدرك بوضوح كاف إلى أي مدى سيتحمل مواطنيه الذين يحبون الشهداء، لأن هؤلاء الشهداء يشجعونهم على استرخائهم اللذيذ، مؤكدين لهم أن الحياة لا تهب إلا أحد اثنين: إما التحرر من الجلاد، أو الطاعة المطلقة. ولم يشك أحد في أن إدوار قد تحرر من الجلاد وراح الجميع يشيعون النبأ بإعجاب وارتياح، حتى إن إدوار صار يلفي نفسه الآن على يد أليس، وجهاً لوجه مع الصورة الزاهية لحادثة صلبه شخصياً. تصرّف ببرود وقال:

– بالتأكيد، أنا لم أنكر شيئاً. وأي إنسان آخر كان سيتصرف على هذا النحو.

– صاحت أليس: أي إنسان؟ انظر حولك إلى الطريقة التي يتصرف بها الناس! إنهم جبناء! كانوا سينكرون أمهاتهم!.

سكت إدوار، وسكتت أليس أيضاً. كانا يمشيان ويداهما متشابكتان. قالت أليس بعد ذلك بصوت خفيض:

– سأفعل أي شيء في سبيلك.

إنها جملة لم يسبق لأحد قط أن قال مثلها لإدوار؛ تلك الجملة، هي هبة السماء. بالتأكيد، لم يكن إدوار يجهل أنها هبة لا يستحقها، لكن خطر بباله أن من حقه قبول الهبات التي لا يستحقها طالما منع عنه القدر الهبات التي يستحقها.

– قال: لم يعد بوسع أحد أن يفعل شيئاً لأجلي.

– همست أليس: كيف هذا؟.

– سيطردونني من المدرسة، وأولئك الذين يتحدثون عني كأنني بطل لن يحركوا ساكناً لمساعدتي. إنني متأكد من أمر واحد فقط: سأكون وحيداً تماماً في نهاية المطاف.

– قالت أليس هازة رأسها: لا.

– قال إدوار: بلى.

– كررت أليس، وهي تصيح تقريباً: لا.

– والجميع تخلوا عني.

– قالت أليس: لن أتخلى عنك أبداً.

– قال إدوار بحزن: ستنتهين إلى التخلي عني أنت أيضاً.

– قالت أليس: مطلقاً.

– قال إدوار: لا يا أليس، أنت لا تحبينني، ولم تحبيني من قبل.

- همست أليس: هذا ليس صحيحاً.

شعر إدوار بارتياح عندما شاهد عينيها تغرورقان بالدموع، ولكنه قال:

- لا يا أليس. تلك أمور يحس بها المرء. كُنْتِ دوماً باردة معي. المرأة التي تحب لا تتصرف بهذه الطريقة. أعرف ذلك. والآن تشعرين بالتعاطف معي لأنك تعرفين أنهم يريدون تحطيمي. أنت لا تحبينني، ولا أريدكِ أن تحشري أوهاماً في رأسك.

كانا ما يزالان يمشيان صامتين، ويداهما متشابكتان. راحت أليس تبكي بصمت، لكنها توقفت فجأة، وقالت في غمرة نحيبها:

- لا، هذا ليس صحيحاً. لا يحق لك أن تقول هذا. هذا غير صحيح.

- قال إدوار: بلى.

وفيما كانت أليس تواصل بكاءها، اقترح عليها أن يذهبا إلى الريف يوم السبت التالي، فلدى أخيه شاليه على شاطئ النهر، في واد جميل، ويمكنهما المكوث فيه وحيدين.

كان وجه أليس قد تخضل بالدموع، فوافقت بصمت.

8

حدث ذلك يوم الثلاثاء. وعندما دُعي إدوار من جديد إلى منزل المديرة يوم الخميس التالي، ذهب إليه باطمئنان مرح، لأنه كان واثقاً كل الثقة من أن سحر شخصيته سيحول حتماً قضية الكنيسة برمتها إلى سحابة دخان صغيرة. بَيْدَ أن ما يحدث دوماً في الحياة هو غير ما يظنه

المرء حين يحسب أنه يمثل دوره في تمثيلية معينة، فلا يخطر بباله أنهم بدّلوا الديكور سراً، ويغدو يمثل مشهداً آخر دون أدنى شك.

جلس على الأريكة ذاتها، مقابل المديرة. كانت توجد بينهما طاولة واطئة وضعت عليها زجاجة كونياك مع كأسين من الجهتين. وهذه الزجاجة من الكونياك هي بالضبط ذلك الديكور الجديد الذي يمكن لأي رجل حاد الذهن وهادئ أن يفهم منه مباشرة أن قضية الكنيسة لم تعد هي القضية المقصودة البتة.

لكن إدوار الساذج كان معتزاً بنفسه فلم يفهم شيئاً في البداية. وانخرط في المحادثة التمهيدية بمرح (حول موضوع غامض وعام)، وعبّ القدح الذي قدمته له وتأسف بسذاجة على الناس. وبعد نصف ساعة أو ساعة، حرّفت المديرة المحادثة سراً نحو موضوعات شخصية جداً؛ فبدأت تتكلم عن نفسها لفترة طويلة، وكان لا بد لتلك الكلمات أن تبرز لإدوار الشخصية التي كانت تود أن تتسم بصفاتها: شخصية إمرأة عاقلة، في سن النضج، ليست سعيدة كما ينبغي، لكنها فاضلة ومستكينة لقدرها، شخصية إمرأة لا تتأسف على شيء، بل ويسرها أيضاً أنها لم تتزوج، لأنها لولا ذلك، لما كانت قد استطاعت بدون شك أن تتذوق تماماً نكهة استقلالها اليانعة، ومسرات حياتها الخاصة في شقة جميلة وصغيرة، تنعم فيها بالسعادة، وتمنت ألا يشعر إدوار بالضجر فيها.

– قال إدوار: لا، أنا بخير هنا.

قال هذا بصوت خفيض، لأنه شعر بالضيق فجأة. فزجاجة الكونياك التي طلبها عن طيش منذ زيارته الأولى، والتي بدت على الطاولة بمثابة وعيد عاجل، والجدران الأربعة للشقة التي تحدد مكاناً

ضيقاً ومغلقاً، ومونولوج المديرة التي تتطرق إلى موضوعات شخصية أكثر فأكثر، ونظرتها المركزة عليه بطريقة خطرة، كل هذا جعله يدرك رويداً رويداً تبدّل *البرنامج*؛ فَهِمَ أنه وُضِعَ في موقف سيتطور على نحو حتمي، وبدا له بوضوح أن ما يعرض مهنته للخطر، ليس كره المديرة له، بل على العكس، النفور الجسدي الذي يشعر به حيال هذه المرأة الناحلة التي لها زغب تحت الأنف، والتي تشجعه على الشراب. وصار يشعر بغصة في حلقه.

أطاع المديرة وعبّ قدحه، لكن القلق بات الآن قوياً حتى إن الكحول لم يعد يؤثر فيه. بالمقابل، تخلت المديرة، التي شربت للتو عدة أقداح، عن تحفظها المعتاد نهائياً، وأصبحت كلماتها محملة بإثارة شبه متوعدة؛ راحت تقول:

– هناك شيء أريده منك، إنها فتوتك. لا يسعك بعد أن تعرف ما هي خيبة الأمل وزوال الوهم. وأنت لم تزل ترى الناس بألوان الأمل والجمال.

أمالت وجهها نحو وجه إدوار. ومن فوق الطاولة الواطئة، وفي صمت كئيب، مع ابتسامة متخثرة، أنعمت النظر فيه بعينين محدقتين على نحو مخيف. أما هو، في هذه الأثناء، فقد طفق يحدث نفسه بأنه إذا لم يفلح في الثمل قليلاً، فإن الأمسية ستنتهي بالنسبة له إلى عجز جنسي مخيف. صبّ الكونياك في كأسه، وعب منه جرعة كبيرة بسرعة. بينما استطردت المديرة:

– لكني أريد أن أرى ذلك بالألوان ذاتها، بالألوان ذاتها التي تراها بها!.

ثم نهضت عن أريكتها بهيئة تفاخر، وقالت:

- هل صحيح أنني أجذبك؟ أهذا صحيح؟.

دارت حول الطاولة وجذبت إدوار من كمه:

- أهذا صحيح؟.

- قال إدوار: أجل.

- قالت: هيا إذن، لنرقص.

تركت يد إدوار، ووثبت نحو مفتاح المذياع، فعالجته بيدها حتى وجدت موسيقا للرقص. ثم وقفت مبتسمة أمام إدوار.

نهض إدوار، وأمسك المديرة، وراقصها عبر الحجرة على إيقاع الموسيقا. كانت المديرة تضع رأسها على كتفه برفق، ثم ترفعه فجأة لتنظر في عيني إدوار، وتدندن اللحن بصوت خفيض.

ومن شدة الكدر الذي اعترى إدوار، فإنه ترك المديرة مرات عديدة كي يشرب. لم يكن به من الشهوة الجامحة أكثر من رغبته بأن يضع حداً لرعب هذا التيه اللامتناهي، وفي الوقت ذاته، أخذ يخشى من هذه النهاية، لأن الرعب الذي سيعقبها بدا له أسوأ أيضاً. لهذا استمر في مراقصة السيدة التي تدندن عبر الحجرة الضيقة. وأثناء ذلك، راح يترصد ـ بنفاذ صبر قلق ـ التأثير المطلوب للكحول. عندما شعر أخيراً أن حواسه تشوشت قليلاً من ثمل الكونياك، ضمّ المديرة إلى جسده بيد، ووضع يده الأخرى على صدرها.

أجل، لقد أقدم للتو على الحركة التي ارتعب منذ بداية السهرة من مجرد التفكير بها، ولا أعرف بماذا كان عليه أن يضحي لئلا يضطر إلى القيام بذلك الفعل، ولكنه، رغم كل شيء ـ صدقوني ـ فَعَلَهُ لأنه كان مرغماً على فِعْلِهِ حقاً. فالوضع الذي تاه فيه منذ بداية

السهرة لم يقدم له أي مهرب؛ كان بوسعه دون شك أن يبطئ مجراه، لكن كان من المستحيل إيقافه، وحتى حين وضع إدوار يده على نهد المديرة، إنما كان يذعن لمتطلبات ضرورة لا مناص منها.

جاوزت نتائج حركته كل التوقعات. وكما بضربة عصا سحرية، بدأت المديرة تتلوى بين ذراعيه، ثم ضغطت شفتها العليا المكسوة بالشعر على فمه، ودفعته إلى الأريكة. وبحركات مرتعشة وتنهدات عميقة، عضت شفته السفلى وطرف لسانه، وهو ما سبب ألماً كبيراً لإدوار. بعد ذلك فرّت من بين ذراعيه، وقالت له: «انتظر!»، وركضت إلى الحمام.

لعق إدوار إصبعه، وتأكّد أن لسانه ينزف قليلاً. كانت العضة مؤلمة إلى درجة أن الثمل الذي توصل إليه إدوار قد تلاشى، وأخذ يشعر من جديد بغصة عند التفكير بما ينتظره. كان صوت الماء يبلغ مسامعه. أمسك زجاجة الكونياك، وضعها على شفتيه، وعبّ جرعة مديدة.

ظهرت المديرة مجدداً على الباب، مرتدية قميص نوم شفاف، تزين الدانتيلا صدره. أخذت تتقدم ببطء نحو إدوار. احتضنته بين ذراعيها، ثم ابتعدت وقالت له مؤنبة:

– لِمَ لم تخلع ملابسك؟.

خلع إدوار سترته، وهو ينظر إلى المديرة التي سمّرت عينيها النجلاوين عليه. لم يكن بمقدوره أن يفكر إلا بأمر واحد: أن جسده سيعرقل على الأرجح جهود إرادته. لهذا السبب فقط حَرِصَ على إثارة شهوته، فقال بصوت متهدج:

– اخلعي كامل ملابسك.

وبحركة مباغتة مفعمة بإذعان مثير، خلعت قميص النوم كاشفة عن شبح هزيل أبيض ينسدل شعره الأسود الكث بإهمال مغم. اقتربت منه ببطء، وفهم إدوار بذعر ما سبق وتنبأ به على كل حال: لقد شلَّ القلق جسده تماماً.

أعرف يا سادة أنكم اعتدتم بتوالي السنين على هذه التمردات العابرة لجسدكم، وأن ذلك لا يقلقكم البتة. لكن هل فهمتم؟ كان إدوار شاباً آنذاك! وكان اضطراب جسده يقذفه في كل مرة إلى ذعر لا يصدق، وكان يعتبر ذلك بمثابة ندبة لا تمحى، سواء حدث ذلك إزاء وجه جميل، أو هيئة قبيحة مضحكة، كهيئة المديرة. ولما أصبحت المديرة على بعد خطوة واحدة منه، قال فجأة وهو مذعور ودون أن يدري ماذا يفعل، وحتى دون أن يعرف لماذا (كان هذا نتيجة اندفاع أكثر منه نتيجة مبادرة متعلقة):

- لا، لا! يا إلهي، لا! هذه معصية. ستكون معصية!.

وابتعد بقفزة. لكن المديرة أخذت تقترب منه وتتمتم:

- لماذا معصية؟ لا توجد أية معصية!.

التجأ إدوار إلى خلف الطاولة التي كانا جالسين حولها قبل لحظات:

- لا، ليس لي الحق، لا يحق لي أن...

أبعدت المديرة الكرسي الذي يعيق مرورها، وتابعت الاقتراب من إدوار دون أن تزيح عنه عينيها النجلاوين السوداوين وهي تردد:

- لا توجد معصية! لا توجد معصية!.

دار إدوار حول الطاولة، و لم يعد يوجد خلفه سوى الأريكة. صارت المديرة قريبة جداً منه. لم يعد بوسعه الفرار. إن هذا اليأس الفائق هو الذي جعله يأمر المديرة في هذه اللحظة التي لا مناص منها:

- على ركبتيكِ! على ركبتيكِ!

نظرت إليه دون أن تفهم، لكنه عندما كرّر بصوت يائس وحازم:

- على ركبتيكِ.

جثتْ أمامه بحماس واحتضنت ساقيه. فصرخ:

- اتركيني. ضمّي يديكِ!

نظرت إليه من جديد دون أن تفهم.

- ضمّي يديكِ! ألا تسمعين؟.

وما إن ضمت يديها حتى أمرَها قائلاً:

- صلّي!.

كانت يداها مضمومتين وترنو إليه بعينين ورعتين.

- صرخ: صلّي! لكي يغفر الله لنا!.

أخذت تنظر إليه بعينيها النجلاوين، والذهول يسيطر عليها تماماً، ويداها ما تزالان مضمومتين، في حين أن إدوار بدأ يفقد شعوره المرهق بأنه ليس إلا فريسة، فاستعاد اطمئنانه، علاوة على أنه كسب وقتاً ثميناً، فأخذ يتفحص هذه الوضعية لجسدها من الأعلى، وابتعد قليلاً حتى يراها كاملة. كرّر مرة أخرى أمره:

- صلّي!

وفيما ظلت صامتة ومذهولة، صرخ فيها:

- صلّي بصوت مرتفع!

وبالفعل، أخذت السيدة الجاثية، الناحلة والعارية، تُرتّل: «أبانا الذي في السموات، أبانا الذي تقدس اسمك، الذي ملكك...».

وهي تتلفظ كلمات الصلاة، كانت ترنو ببصرها نحوه كأنه هو نفسه الله. أخذ يراقبها بمتعة متزايدة: ها هي المديرة أمامه، جاثية على ركبتيها ويهينها مرؤوس؛ ها هي أمامه، الثورية العارية تهينها الصلاة؛ ها هي أمامه، إمرأة تصلي ويهينها العري.

كانت هذه الصورة المثلثة الوجوه للإهانة تثيره. وحدث أمر مفاجئ: انتهى جسده من مقاومته السلبية، وأُثير إدوار. ولما قالت المديرة: «لكن لا ترغمْنا على الإغراء» تخلّصْ بسرعة من كل ملابسه.

وعندما قالت «آمين» أنهضها بعنف وجرّها إلى الأريكة.

9

ذلك ما حدث يوم الخميس. وفي يوم السبت اصطحب إدوار أليس إلى منزل أخيه في الريف. استقبلهما أخوه بترحاب، وأعارهما مفتاح الشاليه.

ذهب العاشقان يتنزهان. وأمضيا طوال فترة ما بعد الظهر في الغابات والمروج. وعندما راحا يتعانقان أتيح لإدوار أن يتأكد بيديه المسرورتين من أن الخط الوهمي المرسوم فوق السرّة، والذي يفصل منطقة البراءة عن منطقة الزنا قد فقد كل قيمة. كانت رغبته الأولى

هي أن يثبت بواسطة الكلمات هذه الواقعة التي انتظرها زمناً ،
إلا أنه تردّد وأدرك أنه من الأفضل له أن يسكت.

لا ريب أنه كان في غاية التنبه: في الحقيقة، لم يكرر
موقف أليس المفاجئ أية علاقة بالجهد الذي كان إدوار يبذ
أسابيع لإقناعها، ولم تكن له أية علاقة بحجج إدوار ***العقلية***
العكس، استند تغيُّرُ موقفها إلى خير تضحية إدوار حصراً، أي
إلى خطأ. وحتى بين هذا الخطأ والنتيجة التي استخلصتها ألي
تكن توجد أية علاقة ***منطقية***، لذلك علينا أن نفكر للحظ
السؤال: لماذا تَرتَّبَ على واقعة بقاء إدوار وفياً لمعتقده حتى
أن تُحرِّض أليس على خرق القانون الإلهي؟ أكان ينبغي على
تخون الله أمام إدوار، لأن إدوار رفض أن يخونه أمام لجنة التحف

في هذه الظروف، كان أدنى تفكير بصوت عال
يظهر لأليس تهافت موقفه، لذلك أحسن إدوار صنعاً
يلفت صمته الانتباه البتة، لأن أليس تكلمت أيضاً بما يكفي، و
فرحة، ولا شيء أشار إلى التبدل المفاجئ الذي طرأ على
أكان مأساوياً أو مؤلماً.

عندما أقبل الليل، عادا إلى الشاليه. أضاءا النور. فتحا
تعانقا، وطلبت أليس منه أن يطفئ المصباح. لكن - وبما أن
سمحت لغبش الليل بالتسلل - اضطر إدوار تلبيةً لرغبة أليس أن
مصراعيها أيضاً. وفي هذا الظلام الحالك، تعرَّت أليس و
نفسها له.

لقد انتظر هذه اللحظات أسابيع كثيرة، والأمر الغريب
الآن وقد تحققت أخيراً، لم تكافئ أهميتها إطلاقاً مدة انتظاره

بدت ممارسة الجنس، على العكس، سهلة جداً وطبيعية حتى إن إدوار كاد يسهو عنها، وحتى أنه حاول حقاً أن يطرد الأفكار التي مرت في رأسه: حين راح يتذكر تلك الأسابيع الطويلة والعابثة التي عذبته أليس خلالها ببرودها، وكل المتاعب التي سببتها له في المدرسة، وبدل أن يمتنَّ لها لأنها منحت نفسها له، شعر بنوع من الحقد الانتقامي. اغتاظ لأنها خانت، بمنتهى اليُسر، ودون تبكيت الضمير، إلهها المعادي للزاني، الذي كانت تضمر له من قبل إجلالاً متزمتاً؛ اغتاظ لأن أية شهوة أو حادثة أو اضطراب لم يستطع أن يعكر صفاءها؛ اغتاظ لأنها عاشت كل هذا دون تمزق داخلي، واثقة من نفسها وبيسر. وعندما أصبح تحت سيطرة هذا الغيظ، حاول أن يضاجعها بعنف وغضب، لكي ينتزع منها صيحة أو تأوهاً، أو كلمة، أو أنيناً، إلا أنه لم يفلح في ذلك. كانت الفتاة خرساء. وبالرغم من كل مساعي إدوار انتهى عناقهما بتواضع وصمت.

بعد ذلك، التصقت بصدره ونامت بسرعة، بينما بقي إدوار مستيقظاً لوقت طويل، وتبين أنه لم يشعر بأي فرح. أخذ يحاول أن يتصور أليس ـ ليس مظهرها الجسدي، بل وجودها في جوهره ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ـ وأدرك فجأة أنه لم يرها إلا **مشتتة**.

لنتوقف لحظة عند هذه الكلمة: أليس كما بدت له حتى الآن، هي في نظره، رغم سذاجتها، كانت كائناً حازماً ذا تقاطيع مرسومة بمهارة: فبساطة جسدها بدت منسجمة مع البساطة الأولية لإيمانها، وبساطة قَدَرِها بدت هي السبب في موقفها. كان إدوار قد عَدَّها حتى ذلك الحين متماسكة ومتسقة، رغم أنه سخر منها وأزعجها وخدعها بحيلة، إلا أنه لم يسعه إلا أن يحترمها "رغماً عنه".

لكن، ها هو فخ النبأ الكاذب ـ هذا الفخ الذي لم يكن قد هيأ لـه ـ قد أخذ يحطم اتساق هـذه الشخصية، وراح إدوار يقـول في سره إن أفكار أليس لم تكن في الحقيقة سوى شيء *ملصوق* على مصيرها، وأن مصيرها ليس إلا شيئاً ملصوقاً على جسدها، و لم يعد يرى فيها إلا تجميعاً مصادفاً للجسد والأفكار والسيرة، تجميعاً لاعضوياً، تعسفياً وقـابلاً للتفتت. أخـذ يتصور أليس ـ التي تتنفس بعمق على كتفه – فرأى جسدها من جهة وأفكارها من جهة أخرى، رأى أن هذا الجسد يعجبه، وتبين أن الأفكار تبدو له مضحكة: لم يكن هـذا الجسـد وتلك الأفكـار يشكلان أية وحدة، وبات يراها كَخَطٍّ امتصته رقعة ورقـة نشـاف: دون تقاطيع وبلا شكل. أجل، أعجبه هذا الجسد حقاً.

عندما نهضت أليس في صباح اليوم التالي، أرغمها إدوار على البقاء عارية. وها هي الآن تنسى حياءها مع أنها هي التي ألحت عشية أمس على إغلاق مصراعـي النافذة لأن ضياء النجـوم الشـاحب يضايقها. أخـذ إدوار يتفحصها حين راحت تتقـافز فرحة، وهـي تبحث عن علبة الشاي والبسكويت من أجل الإفطار. وتبينت بعـد لحظة أنه يبدو مهموماً. سألته عما دهاه. أجابها أن عليـه أن يذهب لرؤية أخيه بعد الإفطار.

حين سأله أخوه كيف تسير الأمور في المدرسة؟ قال إدوار إنها تسير على ما يرام، فقال له أخوه:

– تلك السيشاكوفا قذرة، لكنني غفرت لها منذ زمـن طويل. غفرت لها لأنها لم تكن تدري ما تفعل. كانت ترمـي إلى إيذائـي، إلا أنـي أصبحـت سعيداً بفضلها. أكسـب معيشتي على نحو أفضـل

كمزارع، وينقذني الاتصال مع الطبيعة من الشك الذي يستسلم له سكان المدن.

– قال إدوار بهيئة متأملة: أنا أيضاً جلبت لي تلك المرأة الحظ.

وحكى لأخيه أنه وقع في غرام أليس، وأنه تظاهر بالإيمان بالله، وأنه اضطر للمثول أمام لجنة، وأن تلك السيشاكوفا أرادت إعادة تربيته، وأن أليس منحته نفسها في نهاية المطاف، معتبرة إياه شهيداً. لكنه لم يحك حتى النهاية كيف أرغم المديرة على تلاوة صلاة "*أبانا*"، لأنه اعتقد أنه لمح لوماً في عيني أخيه. سكت. فقال له أخوه:

– لدي بلا شك عيوب، لكنني واثق من أمر واحد. لم أخاتل قط، وقلت دوماً للناس ما أفكر فيه وجهاً لوجه.

كان إدوار يحبُّ أخاه كثيراً، وكان استهجانه يهينه. أراد أن يبرئ نفسه، فشرعا يتجادلان. قال إدوار في النهاية:

– أعلم أنك كنت دوماً رجلاً نزيهاً.وأنك فخور بذلك. لكن اطرح على نفسك السؤال التالي: *لماذا* نقول الحقيقة؟ ما الذي يضطرنا إلى ذلك؟ ولماذا يجب اعتبار الصدق بمثابة فضيلة؟ افرض أنك تقابل مجنوناً يؤكد أنه سمكة، وأننا كلنا أسماك. هل ستتجادل معه؟ وهل ستخلع ملابسك أمامه لتبرهن له أنه ليست لك زعانف؟ هل ستقول له وجهاً لوجه ما تفكر فيه؟ هيا، أخبرني!.

ظل أخوه ساكتاً، فاستطرد إدوار:

– إذا لم تقل له إلا الحقيقة، وإلا ما تفكر فيه حقاً حياله، فهذا يعني أنك راض عن خوض نقاش جاد مع مجنون، وأنك أنت أيضاً مجنون. هذا هو واقع الحال بالضبط مع الناس الذين يحيطون بنا. وإذا

كنت مصراً على أن تقول له الحقيقة وجهاً لوجه، فهذا يعني أنك تأخذه على محمل الجد. وإذا أخذت على محمل الجد أمراً ضئيل الجدية إلى هذا الحد، فهذا بحد ذاته يفقده كل جديته. *وأنا، يجب علي* أن أكذب حتى لا آخذ على محمل الجد المجانين وإلا أغدو أنا أيضاً مجنوناً.

10

انتهى يوم الأحد، واتخذ العاشقان طريق العودة. كانا وحيدين في المقصورة (عاودت الفتاة ثرثرتها بفرح) وراح إدوار يتذكر كيف ظلّ مبتهجاً حتى فترة قريبة جداً لفكرة أنه استطاع أن يعثر في شخصية أليس *الاختيارية* على جدية لم يكن يتوقع أن تحصل له أبداً، وأدرك بحزن (العجلات تضرب برتابة على مفاصل السكة) أن المغامرة الغرامية التي عاشها للتو مع أليس كانت ساخرة، ومصنوعة من المصادفات والأخطاء، ومحرومة من الجدية والمعنى؛ أخذ يصغي إلى كلمات أليس، ويراقب تصرفاتها (كانت تضغط على يده)، وطفق يحدّث نفسه بأنه ليس لهذه الحركات معنى، وأنها عبارة عن أوراق نقدية دون رصيد، وأثقال من الورق، ليس بوسعه أن يمنحها من القيمة أكثر مما يسع الله أن يمنح صلاة المديرة وهي عارية؛ ثم قال في سره فجأة إن كل الناس الذين عاشرهم في هذه المدينة لم يكونوا في الواقع سوى أسطر ممتصة على رقعة من ورق النشاف، وكائنات ذات مواقف قابلة للتبادل، ومخلوقات دون جوهر راسخ. لكن ما كان سيئاً جداً ـ حَدَّثَ نفسه بعد ذلك ـ هو أنه لم يكن هو نفسه سوى ظل لكل تلك الشخصيات العائمة، لأنه كان يستنفذ كل مصادر ذكائه لهدف وحيد هو أن يتوافق معهم ويقلدهم، ورغم أنه

كان يقلدهم وهو يضحك في سره، دون أن يأخذهم على محمل الجد، ومع أنه حاول بذلك أن يسخر منهم خفية، وأن يبرهن بهذه الطريقة على سعيه للتكيف، فإن ذلك لم يدل شيئاً، لأن التقليد، حتى عن سوء نية، يظل تقليداً، وحتى الظل الذي يضحك هازئاً يظل ظلاً وشيئاً آخر ويدعو للرثاء.

إنه أمر مخز، مخز على نحو مخيف. ما زالت العجلات تضرب على مفاصل السكّة برتابة. و لم تزل الفتاة تثرثر. قال إدوار:

– هل أنت سعيدة يا أليس؟.

– قالت أليس: أجل.

– قال إدوار: أما أنا فإني حزين.

– قالت أليس: هل أنت مجنون؟.

– ما كان يجب أن نفعل ذلك. ما كان ينبغي أن...

– ماذا دهاك؟ أنت الذي أردت ذلك!.

– قال إدوار: أجل، لكن... هذه هي خطيئتي الكبيرة التي لن يغفرها الله لي. إنها معصية يا أليس.

– قالت الفتاة بهدوء: أرجوك، ما الذي يحدث لك؟ أنت نفسك لم تفتأ تردد أن الله يريد الحب، وبادئ ذي بدء الحب!.

عندما تأكد إدوار أن أليس انتحلت بالتدريج السفسطائية الدينية التي ظلت حتى وقت قريب مغيثاً ضعيفاً جداً له في معركته الصعبة، احتدّ غيظاً:

- قلتُ لك ذلك لأختبركِ. أعرف الآن مقدار وفائك لله! لكن المرأة القادرة على خيانة الله، قادرة على أن تخون رجلاً أضعافاً مضاعفة.

لم تزل أليس تلتمس إجابات جديدة، جاهزة سلفاً، إلا أنها لو تنبهت جيداً لما التمستها، لأن تلك الإجابات ما انفكت تؤجج غضب إدوار الانتقامي.

تكلم إدوار طويلاً و لم يزل يتكلم (استخدم كلمات *الاشمئزاز والتقزز الجسدي*) حتى انتهى إلى أن ينتزع من هذا الوجه الوادع والحنون، أخيراً، نحيباً ودموعاً ونواحاً.

قال لها في المحطة: «وداعاً» وتركها تبكي. وعندما عاد إلى منزله - وهو ما لم يحدث إلا بعد ساعات عديدة - وعندما سكن ذلك الغضب الغريب أخيراً، أدرك كل النتائج المترتبة على ما فعله للتو: راح يتصور ذلك الجسد الذي ظل حتى الصباح يتقافز أمامه عارياً تماماً، وحين قال في سره بأنه هو ذاته، وعن عمد قد طرد ذلك الجسد الجميل، وصف نفسه بالأحمق، واعترته رغبة بأن يصفع نفسه.

لكن ما حدث قد حدث، و لم يعد بوسع أحد أن يغير في الأمر شيئاً.

لا بد لي أن أضيف، من جهة أخرى، وفاءً للحقيقة، أنه إذا كان ذلك الجسد الجميل الذي فَرَّ من إدوار قد سبب له شيئاً من الحزن، فتلك خسارة سرعان ما أذعن لها. لقد عاني. بعيد وصوله إلى المدينة الصغيرة. من نقص في العلاقات الجنسية، إلا أنه كان نقصاً مؤقتاً. و لم يترتب على إدوار أن يعاني منه كثيراً، لأنه صار يذهب مرة في الأسبوع لرؤية المديرة - كانت العادة قد حررت جسده من مخاوف البداية - وقرر أن يذهب إلى منزلها بانتظام ما دامت الأمور لم تبخل في المدرسة بشكل نهائي.

وفوق ذلك، ظل يجرب بنجاح متزايد أن يغري نساءً وفتيات عديدات. وما حدث هو أنه استمتع كثيراً باللحظات التي ألفى فيها نفسه وحيداً، وأخذ يحب النزهات الفردية التي كان يستفيد منها أحياناً - تكرّموا بتركيز بعض الانتباه أيضاً لهذا الأمر الثانوي - ليقوم بجولة في الكنيسة.

لا، اطمئنوا، فإدوار لم يعرف الإيمان. ولا أنوي أن أتوّج حكايتي بتناقض صارخ إلى هذا الحد. لكن إدوار ظل يقلب في رأسه بسرور وحنين فكرة الله وهو شبه واثق بأن الله غير موجود.

الله هو الجوهر بالذات، بينما إدوار، وبعد مضي سنوات عديدة على مغامراته مع أليس والمديرة لم يصادف قط شيئاً جوهرياً، لا في غرامياته، ولا في مهنته، ولا في أفكاره.

إنه أشرف من أن يرضى بأن يجد الجوهري في غير الجوهري، إلا أنه أضعف من أن لا يتوق إلى الجوهر بشكل سري.

آه، آنستي، سادتي، ما أتعس حياة المرء حين لا يستطيع أن يأخذ شيئاً على محمل الجد، ولا حتى أحداً!.

لهذا السبب يشعر إدوار بتوق إلى الله، لأن الله فقط أعفي من واجب *الظهور*، ويمكنه أن يكتفي *بالكينونة*، لأنه هو وحده، وحيد وغير موجود.

أما التناقض الجوهري في هذا العالم فإنه ينشأ من الموجود الذي هو غير جوهري.

أصبح إدوار يأتي من حين لآخر ليجلس في الكنيسة، ويرنو بعينين حالمتين إلى القبة، وها هو الآن، في فترة ما بعد الظهر، والكنيسة هادئة وخالية، يجلس على مقعد خشبي، ويشعر بالحزن لفكرة أن الله غير

مرئي، لكن حزنه أخذ يكبر في هـذه اللحظة بالذات إلى حـد أنـه يرى وجـه الله الحقيقـي، والنـابض بالحيـاة ينبثـق مـن أعماقـه. انظـروا! هــذا صحيح. إدوار يبتسم! إنه يبتسم ابتسامة سعيدة.

والآن سـنودعه وننصرف. ولكـــن مـــن فضلكـــم، أبقـــوه في ذاكرتكم مع هذه الابتسامة.

كتبت في بوهيميا

بين 1959 و1968

من إصدارات الدار

العنوان	المؤلف
1- المرأة مفاهيم ينبغي أن تصحح	سامر إسلامبولي
2- تحرير العقل من النقل (قراءة نقدية لمجموعة من أحاديث البخاري ومسلم)	سامر إسلامبولي
3- الألوهية والحاكمية (دراسة علمية من خلال القرآن الكريم)	سامر إسلامبولي
4- ليلة في غرفة تشريح الجثث (أدب ياباني)/ يوشيو ساكاب	ت: موسى الزعبي
5- مئة موال في الغزل دراسة في نصوص مشروحة (جمعاً ونظماً)	د. إحسان الهندي
6- المرأة اليهودية بين فضائح التوراة وقبضة الحاخامات	ديب علي حسن
7- رداً على كتاب قس ونبي (دعوة الإيمان في القرآن وفي كتب أهل الكتاب)	د. أسعد حومد
8- تاريخ المؤسسات الجزائرية	د. إحسان الهندي
9- الوصايا المغدورة/ميلان كونديرا	ت: معن عاقل
10- المحاورة / ميلان كونديرا	ت: معن عاقل
11- تاريخ مدينة دمشق خلال الحكم الفاطمي (جزء من رسالة دكتوراه)	د.محمد حسين محاسنة
12- سيد الباب السابع	إيفلين بريزو بيللين
(رواية من الأدب العالمي للفتيات)	ت: فاطمة عابدين
13- بين ابن المقفع ولافونتين (مدخل إلى دراسة مقارنة)	فاطمة عابدين
14- سيد العشاق (ديوان د. وجيه البارودي)	د. وجيه البارودي
15- الشعر والتلقي دراسات في الرؤى والمكونات	د. نعيم اليافي
16- توظيف التراث في المسرح	حسن علي المخلف
دراسة تطبيقية في مسرح سعد الله ونوس "رسالة ماجستير"	
17- ببغاء أمريكو "رواية من الأدب العالمي للفتيات"/هوجيت بيروث	ت. فاطمة عابدين
18- الحاضر غائباً /مقولة/	د. محمد جمال طحان
19- القصة القصيرة جداً	أحمد جاسم الحسين
20- رحلة إلى الأعماق (حوارات في الفكر والثقافة والأدب)	د. نعيم اليافي
21- الشعرية قراءة في تجربة ابن المعتز العباسي	د. أحمد جاسم الحسين
22- مفهوم الجامعة	د. نعيم اليافي
23- اليهود تاريخياً فكرياً سياسياً (دعوة الإيمان وصراع العصور)	د. أسعد حومد
24- الجزيرة العربية أهم اكتشاف للحضارات القديمة	علي سكيف
25- انتبهوا الدجال يجتاح العالم	محمد منير إدلبي

26- النبأ العظيم	محمد منير إدلبي
27- قتل المرتد (الجريمة التي حرمها الإسلام)	محمد منير إدلبي
28- أبناء آدم من الجن والشياطين	محمد منير إدلبي
29- أيام عربية 2/1	ابراهيم بيشموني
30- النزاع على الصحراء الغربية بين حق القوة وقوة الحق	مصطفى الكتاب
31- نزاع الصحراء الغربية بين المغرب والبوليساريو	طاهر مسعود

إصدارات المترجم

تأليف:

الضيف الغريب	[illegible]	مجموعة قصصية	وزارة الثقافة

ترجمة:

خريف دون حوان	جيلبر سيسبرون	رواية	وزارة الثقافة
غراميات مضحكة	ميلان كونديرا	قصص عالمية	وزارة الثقافة
إدوار واقة	ميلان كونديرا	قصص عالمية	دار آرام
رحلة ثلج	إمانويل كاربر	قصص عالمية	وزارة الثقافة
إمرأة عند حافة الأربعين	فرانسوا ساغان	رواية	دار آرام
المفتش	بريجيت أوبير	قصة عالمية	دار الشموس
أمير الجزر النائية	بياتريس دوني	قصص للشباب	وزارة الثقافة
فلورنتين	جيمس كراس	قصص للشباب	وزارة الثقافة
شيطان القمقم	جيمس ستيفينسن	قصص للشباب	وزارة الثقافة
العاشق والطاغية	إسماعيل كاداري	قصة عالمية	دار آرام
الحياة الأسرية	ماري أوديرسيه	كتاب تربوي	وزارة الثقافة
. الوصايا المغدورة	ميلان كونديرا	دراسة في الرواية	دار الأوائل
المحاورة	ميلان كونديرا	قصص عالمية	دار الأوائل

الأوائل

ميلان كونديرا

المحــاورة



ترجمة: معن عاقل
منار عاقل

يقول كونديرا:

أن يكون المرء روائيـاً، شكّل بالنسبة لي، وأكثر من ممارسة اي جنس أدبي آخر، موقفاً وحكمة وموقفاً اجتماعياً، موقفاً يستبعد كل تماثل مع السياسة والدين والإيديولوجيا والأخلاق والجماعة انه لا تماثل واع وعنيد وحانق ولا يعد هروبا أو ســــلبية إنما يعد مقاومة وتحديا وتمردا وانتهى بى الامر الى هذه المحاورات الغريبة :

هل انت شيوعي يا سيد كونديرا ؟

لا انا روائي .

هل انت منشق ؟

لا انا روائي .

هل انت يسارى ام يميني ؟

لا هذا ولا ذاك . انا روائي .

من كتاب (الوصايا المغدورة)



الأوائل

للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية

سورية - دمشق . ص . ب: 018103397